2276
.9956
.348
1973

2276.9956.348.1973
Ziyadah
Ibtisamat wa-dumu'

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 071970717

ابتسامات ودموع

مي زيادة

إلى العينين

اللتين أطبقهما الموت قبل ان انثرها · إلى

الابتسامة التي لا أعرف منذ الأطفال · إلى الاسم

العذب الذي لا ترهن به شفتاي دون ان تملأ عيني

الدموع · إلى الطفل الذي رحل إلى خالقه وبتم في

عاطفة الحب الأخوي فحرمني من متعة الاغ وقبلته

وابتسامته ودمعته — : إلى أخي الوحيد الذي

تقاسمه الأمومة والبنوة

(مي)

Ziyādah, Mary

ابتسامات ودموع

مَي زيَادة

رئيس التحرير : سيمون عواد

مؤسسة أ. بكران وشركاه
للطباعة والنشر
بناية العسيلي – شارع السور
ص.ب ٢٦٧٦ – تلفون ٢٢٩٥٢٠
بيروت – لبنان

2276
.9956
.348
1973

جميع الحقوق محفوظة

كلمة الدار

هذا الكتاب المخطوط لمي زياده دخل إلى المطبعة وخرج منها مخطوطاً . وذلك عملاً بمبدأ نشر الوثائق بخطها الأصلي (تصويريا) على غرار ما فعل ، من قبل ، المستشرق الانكليزي مرغوليوث في كتاب « الانساب » للسمعاني . وإذا كان مرغوليوث قد شاء ان يدرس الوثائق بخطوطها الاصلية ، والشائكة أحياناً ، فكم يغبط أهل كل زمان ان يقرأوا لأعلامهم – في حياتهم وبعد مماتهم – تصاوير أفكارهم وخلجات نفوسهم بخطوطهم .

ففي الأمر قيمة وثائقية ومتعة وجدانية وأخذ بالجوانب الحميمة من عمل التأليف ، بما يتعدى الكاتب إلى الانسان .

وهذا ما يدخل في خط الجمالية العام الذي يميز كاتباً عن آخر .

وأدب مي زياده هو كأدب جورج ايليوت وجورج صاند ومدام دوستال ، باناقته وانوثته ، ناهيك بألوانه الحضارية التي رشحت من شخصيتها ذات الثقافات المنوعة .

وهذا ما يفسر قول أحد الادباء لمي : « أأنت ناقلة مكس مولر إلى العربية أم هو ناقلك إلى الالمانية ؟ »

« في هذه الكلمة التي تخال تملقاً للوهلة الأولى ، حقيقة أولية هي كل قوة الكاتب الوجداني الذي انما نحكم له بالتفوق لأنه أحسن التعبير ليس عما يشعر به هو الكاتب ، بل ما نشعر به نحن القراء . »

في هذا الكتاب هدية لكل مكتبة .

سيمون عواد

8-23-74 1945

مقدمة الطبعة الثانية

أراني راغبة في تقديم الطبعة الجديدة بكلمة تشير إلى كيفية تعريب هذا الكتاب، وتوضح السبب الذي حملني على استبدال اسمه الأصلي "الحب الألماني" Deutsche Liebe باسم "ابتسامات ودموع" الذي عُرف به لدى قرّاء العربية. وان أشرح ما يتناول هذه الطبعة من تغيّر يبدو في كل جملة تقريبًا، ومن زيادة أتيت بها في صفحات كثيرة من أغلب الفصول. وان اشفع هذه التفاصيل بجمل عن واجبات المعرّب وحقوقه، وهو بحث يحتّم إفراجه على كل من ألمّ من الادباء بآداب الغرب في هذه السنوات التي شاع فيها نقل آداب اوربا إلى لغتنا شيوعًا كبيرًا.

على أني لا أكاد أذكر الترجمة الأولى الا ويأخذ بخيطي بالتلاشي وكأن القلم يسقط من يدي لتحدّق في الصحيفة البيضاء كأنها آلة

سحيّة تشهي الوسيط وتسطو عليه أسرارها. ولا يطول حتى تنشق
على صورة المكان الذي أطلقني يومذاك سماؤه ودوت حدي أصدائه. هاك
حفيف الأوراق، وتصفيق الأجنحة، وتغريد الأطيار على الغصون. ألا فاضع
إلى وقع أقدام السائرين في الطريق الحمراء الضيقة الملتوية بين أشجار
الصنوبر صعوداً إلى قمة أشرفت على المرتفعات والمنخفضات يسرة ويمنة
وشرقاً وغرباً. وانظر جانباً إلى صنين وقد انقلت ذروته شلوعٌ
حمراء انعكاس الأشعة نفاذاً نورانياً يشرّ إلى صدر الفضاء بما تحمله
إليه أصداء الغبراء من شكاية وتأوه. تنبثق من جانبه سلسلة
آكام تتمانه متدبرة، متطيلة، ناشزة، وتظل في انتقاص وتصاغر
على انسجام حسن دراية حتى تسجد بوقع الصخور نداً على أقدام السائر.
كأن أعالي صنين أنفذت برسالة إلى البحر لتعود بالجواب عليها. والبحر آه!
ترى ماذا يقول ذلك الأزرق الأفيح المائج بهدوء ودلال، كأنه ارجوحة

الأثير تهزها ايادي آلة الهواء لتنوم فيرى طفلاً عجيباً دهشت بجمالة السماوات واقشعرت الأرضين بغرامه ؟

نعم ، ها أننا في ظهور الشوير بلبنان ، ذلك المصيف الهنيء . نحن في صميم القيظ وقد تقاطر المصطافون حتى ضاقت بهم المنازل والفنادق . والجماعات التي تباينت أفرادها علماً وتهذيباً وارتقاءً وتنافرت عادات وشياب وأطعاماً ، ها هي تعيش تحت سقف واحد وتتبع في أمور جمة نظاماً فرداً وضع لضيوف النزل جميعاً . ومن هذا الاجتماع بالغرباء ، ومحاذاتهم أياماً وأشابيع وشهوراً ، والجلوس واياهم حول مائدة واحدة مرة بعد مرة ، وحدة تنشأ وتتثبت بالتكرار ، فضلاً عن خبرة موفورة لدرس أخلاق الناس وتمرين ميسور في أساليب المعاملة والإرضاء

بيد اني بعد الاحاديث المسلية والضحك والاستئناس أظل في حيرة بغرائب واسع . أظل متسائلة ماذا يعرف اولئك المتسامرون المتحاورون

المقابلون — من بعضهم بعضاً ، أطلب ثانية إلى الوحدة والاعتلاء تحت أشجار الجوز الصغير. لذلك سعيت في ان يبنى لي هذا الكوخ الضيق من خشب الغصون ويسقف بالأعشاب اليابسة ، وليس في داخله من حطام الدنيا سوى مقعد وطاولة نضدت عليها كتب قليلة . وإنما دعي كوخي بالكوخ الأخضر ، لأني جللت جدرانه من الداخل بنسيج أخضر . عدا عن أفنان مخضوضبة حننت عليه وخضرة غضة أحدقت به من كل جانب . هنا تعرفت بمكس مور وكتابه الجميل . تعرفت به في الخلوة لأن الأرواح الكبيرة تتكشف في المحافل العادية ولا تتجلى إلا في العزلة لمن كان على استعداد لتلقي فيض بارك

* * *

كنت أدرس الألمانية في القاهرة أيام الشتاء ولم نيلني مني سوى عشرين ديناً أو أكثر قليلاً . ولما تزودت بالكتب قبيل الرحيل

أضفت إلى حقيبتي كتاباً ألمانياً لاغير ، هو «حب الألماني» هذا . وقد وقع عليه اختياري لأن السيدة البروسية التي تتلمذت لي ذكرته بحدة أثناء سوء المشبع فداً ومعرفة على سهولته ودقته . ونسبت هذه الدقة وتلك السهولة إلى كون المؤلف عرفاً بفطرته ووراثته رغم اشتغاله بالعلم والبحث ، وإلى كونه انجليزياً بوالدته كما صار بعدئذ انجليزياً بزوجته وباستيطانه انجلترا أعواماً طوالاً . فكان له من إجادة اللغة الانجليزية ومعالجتها والتأليف فيها ما عد قوياً في تجريد جملة الألمانية من التطويل والصعوبة والإبهام الملازم لها غالباً عند كتاب الألمان ، لاسيما العلماء والفلاسفة

أن تم تصفح الكتاب في عزلة «الكوخ الأحمر» ولم أفرغ من الفصل الأول حتى تملكتني روحه الشعرية الفلسفية وأخذت ذهني فتمكنت من الإحاطة بالمعنى العام وإن فاتني من بعض المؤلفات كثير .

وما أتيت عليه إلا وعدت أراجع قراءته مرات حتى ابتهجت بمحاسنه نفسي المنفردة . وعلى قصر باعي بالعربية التي كنت نشرت فيها مقالات ابتدائية قليلة ، وهو أني لم يكن لدي معجم ألماني ، استعنت بالعلم والقاموس لأرسم بعقلي تلك الخطوط البديعة ؛ ولو كان لي مقدرة مكس مولر الفكرية واللسانية لما أوضحت عن حركات النفس بعدها . وقد قال لي أحد الأدباء عندما نشرت « ابتسامات ودموع » في ذيل « الحرية » في الشتاء التالي ، قال « أسائل ذاتي ساعة أقرأ ذيل « الحرية » أأنت ناقلة مكس مولر إلى العربية أم هو ناقلك إلى الألمانية ؟ » . في هذه الكلمة التي تخال تملقاً للوهلة الأولى ، حقيقة أولية هي كل قوة الكاتب الوجداني الذي إنما نحكم له بالتفوق لأنه أحسن التعبير ليس عما يشعر به هو الكاتب ، بل ما نشعر به نحن القراء . وكيف لا نحكم له بذلك وهو الغريب الجاهل أسرار قلوبنا قد اطلع على خفاياها وبسطها لنا وللعالمين . وكتاب « ابتسامات ودموع » من هذا القبيل آية شيخ وبراعة . لا يقف على الوصف بل هو مرتبط وحي النفوس الحساسة

كان ذلك في صيف ١٩١١ وفي تيقظ الفتاة الاول، واستفزها
الهامت ازاء المسائل الكونية والعرفانية والروحية، واعجابها المتشبه المتحفز للاهتمام
والتحمس. وفي كذلك فجاءة وحيرة وتردد ها
وكتبت كتيبة. كنت اكتب لغير سبب، واكتب للعوامل الدافعة بالاجتماع
الى غاية أو ارادة ليلا ونهارا. حتى اذا احتبت الحمى الطبيعية والقيت على انحال روح رافقت
الكآبة صبي واتكالي. الكآبة خاتمة شعور الانسان ازاء الجمال والقباحة، والخير والشر، والعدل
والظلم، والكره والحب، والعنف والخذلان. اليها تنتهي حركات التأثر في جميع حظائر النفس
كأن لا شيء وراءها سوى المبهم والمجهول والظلام الدامس. أهي ناتجة عن شعور المرء بضعفه
قوة العالم وبعجزه عن تحويل الاشياء عن مجراها؟ قد يكون. ولكن الواقع ان التنزه والاناة
غاية كل عالمة وكل فكر، كما ان كل عمر بشري يختم بارسال الزفرة وانسدال الجفون
كنت قبلئذ اتيه لا ادري على شيء، ان وقعت عيني على شخص أو طرق سمعي موضوع
نظرت في هذا وذاك نظرة استجارة طلحي. أما هناك فطفقت ألقي على نفسي اسئلة
منطلقة من جهلي المتغطرس الى الارتواء. من أنا؟ ما هو موقفي في الدنيا؟ لماذا تزعجني
بعض الاحاديث، وتستهويني بعض الوجوه في حين ارتاع لأحاديث اخر وتجذبني وجوه
غيرها؟ لماذا أحب هذه ولا احب تلك؟ لماذا ينفث هذا في روعي وجوب احترامه فاقعد

بتوجيه عاطفة جليلة، الى موضوع بيتي ، بينما ذاك الآخر لا يلهمني غير الهزء والاستهزاء؟
ماذا يوحي الناس وأوهامهم ؟ لماذا يؤلمني الناس وآلامهم ؟ ومن أين لي ولهم هذه القدرة العميقة
على الحب ؟ اسئلة تقضي العمر ناشدين عنها أجوبة كثيرة ولا نفوز قبل الموت بالجواب الشافي .

هكذا صار كوخي الاخضر سجناً اختيارياً ، وشرفته نافذة مفتوحة على ميدان
العجائب والغرائب وقد تسنى لي ان استعرض واتفحص بكدي تائهاً عن ماضيك
دون ان يكون نصيبي سماع أو مجيب .

الفكر ! ما أعذب الفكر إذا هو مزج بطلاوة العاطفة وخيمت عليه أوشحة
الخيال ! عشت السنوات الأولى من حياتي دون تفكير ، وها قد غدا الجناح الملدن
بألوان قوس السحاب يضرب جبهتي ليفسح له فيها وكراً ، فصار كل موضوع وكل
شخص ، وكل مشهد طبيعي ينفحني بتأملات زرقاء ، وردية ، ذهبية ، فضية ،
مادية تحوم حولي تارة ، وطوراً تجتمع في متعاونة على إيحاء الكتاب على إيحائي
الى روح الانثى فيه . فأكاد اسمع دقات قلبك وصدى أنينك فادرك رنا
شقية بجمالك واضطرابك وهمومك ، وانه قدر على المختارين من بنيك ان يتألموا
أضعافاً لأنهم الذين يقدرون الى مقاتلة المجهول ، وجميع الطلائع منهم تنتقدون

ضربات المصادرة والمقاومة . فلا تضعف عزائمهم ، ولا تكلّ أقدامهم ، ويثابرون على تلمّس السبيل في حالك الظلمات ، ويعيدون إلى الأمام حاملين غنيمة الجهود الأنانية والثقة بتحقيق الآمال

* * *

والطبيعة ؟ يا لاستهواء الطبيعة وقد انتشرت الأشجار والصخور على الجبال والوهاد ! فزدت هناك الأشعة وانسلّت هنالك الأظلال ! يا لذلك وقد تجمّعت منازل القرى حول قبة الأجراس المنتصبة كالمسلّة ، بل هي قامت في الوسط كالهن مدّ يمينه نحو العلاء متبهلاً وجثت حوله الرعية خاضعة طارعة ! يا لبراعة الطبيعة بالتنوّع في بنائها الجميل ! لقد تصرّفت بجميع فنون الجمال فهي منه كل يوم في حلّة جديدة وهيئة طريفة . فساعة تفرق الكائنات جميعاً في أوقيانوس ضياء يبهر الأنظار ويذهل العقول ؛ وساعة تزحف كتائب الضباب ~~[illegible]~~ المنبثقة من أطراف البحار وأقاصي الآفاق وتهجم فيلتقي السحب المتكاثفة من أقاصي الآفاق فتتشح ما خام الماء وتبسط رواقاً رمادي في الهواء ، كأن العالم في دور الجنين . ويقتدل النور والحرارة يوماً ، ويزيد رطوبة التيقظ والكتمان فترصع أيراق كل نبت ، وكل قطرة ماء ، وكل ذرة هواء ، بأعزة بشرة الوجود الخطير ، تؤيد بحركتها

الطبيعة ضرورة ثابتة وحقيقة كيانية ؛ ويجال الهواء حتى تقلب الوان
داويًا كانفاس الجوف . وآنًا تبدو خطوط الموجودات ونبرات الاصوات
بوضوح غير عادي ، وتنمو روعة الاشياء كأنها كبرت واتسعت ، وربضت في مجاهلها
الأهوال باتفاقٍ فجائيٍ بين آلهة القدر . فيتولاني افتتان به ينقلب
الزمن والمسافة شائلًا متحركًا أو عبابًا متموجًا يحملني تياره إلى حيث لا أدري من
عوالم الخيال ؛ وكأن الحياة بالآنية الضئيلة المأذونة ، الآنية التي تحمل
الفرض من تركيبها ووجودها ولا تفتأ تذوب شوقًا إلى بلوغ غايةٍ ترحم الاحاطة
بها وحي في الواقع لا تعليل ما حي !

وكم غلت القوة الحيوية غبارًا ذهبيًا أو سيالًا إلهيًا منبثقًا من
صدر البحر والجبال والكائنات جميعًا ؛ وكم عبدت الطبيعة عبادةً حارةً خاشعةً كعبادة
المتدينين والشعراء والمتيمين ، أولئك الذين يقدسون الحياة خارجًا عن اشخاصهم
ومحصورةً في إلهٍ ، أو رمزٍ ، أو انسان ؛ وكم ملأت الدموع عينيّ شكرًا للحياة ،
شكرًا للطبيعة ، شكرًا لجميع الموجودات ، شكرًا لهذا الكتاب الذي تتردد
بين سطوره خيالات اليأس والأمل والبكاء والابتسام والحب والموت
واللانهاية

اظنني قلت في مطلع الكلام ان القلم سقط من يدي ، وكان
وهما . ها هو القلم ~~يجري~~ يجري على الصحائف قليلاً قليلاً مستيقظاً تلك
الرسوم تباعاً كما تتعاقب الصور المتحركة على غطاء المرسح ، وما الالفاظ سوى
رسوم إيمائية لحقيقة . غير ان النفس ~~تتذوقها~~ تتذوقها كمذوق ثمينة
لأن كبيرة الحزن في التطور الروحي والفكري مني
« احب الالمان » ؟ كلا ، ليس هذا الكتاب حبا المانيا فقط
بل هو خلاصة بشرات الانسان وعبرانه . فسمته « ابتسامات ودموع » .
فان كان ذلك تزييفا لقدرة المؤلف الواجب احتراسي على كل متهجم ، فهو صادق
من حيث اقتناعي الخاص ، أمين للصورة التي ارتسمت منه في نفسي

* * *

ومرت السنون وشاع الكتاب وكادت نسخه تنفد منذ ثلاثة أو
أربعة أعوام فحال دون طبعه اعتقادي بوجوب إعادة النقل من جديد . لأني وان
رأيت بعد دير الى الممتع بروح الكتاب إلماما يكاد يكون تاما غير اني أحسست طائفة
من الأفكار الجميلة والمعاني الرائقة التي لا يجوز الاغضاء عنها

والآن الهدي اليك ، أيها القارئ ، هذه الطبعة الجديدة
ستجد هذا الكتاب سواء أكنت معلماً أو متعلماً ، فيلسوفاً أو شاعراً ،
سياسياً أو تاجراً ، سعيداً او شقياً ، كبيراً أو صغيراً . ستحيا فيه وبه
كما حييت . ستنمو به وتتوحد واياه حيناً فينتزعك عن ميدان
المزاحمة والمنافسة والحقد والتهكم والكيد والوجود . ستتوحد واياه
متعلقاً ماضيك ، أو مفكراً في حاضرك ، أو متوقباً مستقبلك .
أو هو يمثل لك فصولاً من ماضيك وحاضرك ومستقبلك جميعاً في آنٍ
واحد ، لأن العواطف لا تفنى والقلب لا تدركه الشيخوخة . بل يتبع
طريق العمر جامحاً من يأسه وآلامه وانتصاره وانهياره خبرةً وقوةً توصلانه
الى سبل جديدة ومعارف مطلوبة . وحسبه ان ينبّه فيك
الذكاء لكل امرئ من معاني الحب والحياة والموت والابتسامات والدموع
وهي إرث بني الانسان أجمعين

(ي)

العلامة اللغوي ماكس مولر

نقلت الينا الصحف الاوربية عالماً من شيوخ العلماء الخ [illegible] نقلاً عن المقتطف صفحة ٨٩٤ ومايليها حتى نهاية المقال ويوضع بعده:

(المقتطف عدد نوفمبر عام ١٩٠٠)

مقدمة المؤلف

الدفة التي تندفع قلب من جلس إلى منضدة طالما اتكأ عليها صديق نام الآن في القبر ليستريح - ترى من لا يشعر بهذه الرقة بعد فراق الحبيب ؟ من ذا الذي يحاول فتح أبواب أقفلت على أسرار قد تركها فؤاد مضى يختفي وراء هدوء المدافن وجلال ؟

هاك رسائل أحبها كثيراً ذاك الذي أجمعنا القلوب على محبته . وهذه صور وأشرطة ، وكتب وضعت بين أوراقها العلامات والرموز . من ذا الذي يستطيع الآن تقليبها ليستشف الغاية منها ؟ وهل من يد سخية تلمس هذه الوردة الممزقة الجافة وتنفث فيها من جديد روح الحياة وأريجها ؟

كان اليونان يضعون موتاهم على ذاك نار في فيلتهم الأنيق . واعتاد الأقدمون إيداع النار كل عزيز لديهم ، وإنما النار مستودع أمين

لها تيك الذكرى

كذلك يقرأ الصديق الأسيف صفحات لم تقع عليها عيني غير تلك التي أُلهبت إلى الأبد . وإذ يتثبت من خلوها مما يهم العالم يحملها بيد مرتجفة ويلقيها في النار . فيضم اللهيب وديقه هنيهة ولا يطول حتى ينقلب إياها رماداً

لقد نجت الصفحات التالية من مثل هذا المقدور . ولم يكن يراد ~~[illegible]~~ في البدء سوى إذاعتها بين خلان الصديق الراحل . أما وقد وجدت أصدقاء بين الغرباء فهي جديرة بالانتشار في العالم الوسيع . وكان يود ناشرها ابرازها على صورة أتم . إلا ان الأوراق كانت تالفة بالية في الأصل ليتيسر نشرها بأكملها

ف . مكنس مول

الذكرى الاولى

للطفولة أسرار وخصائص ولكن من ذا الذي يستطيع وصفها ؟

من ذا الذي يستطيع تعليلها ؟ لقد اجتاز كلٌّ منا ذلك العمر الذي تشبه ذكراه ذكرى غابة هادئة مسحورة ، وخبر يومًا فيه فتح عينيه المملوءتين بدهشة السعادة على سناء الحياة الجديدة الفائضة في روحه . يومذاك لا ندري أين نحن ومن نحن : بل العالم كله يخصنا ونحن ملك العالم بأسره . حياة تخال دائمة بلا بداية ولا نهاية لا هم فيها ولا ألم . القلب عندها صافية كسماء الربيع عذبة كعرف البنفسج ، مطمئنة قدسية كصباح أيام الأحد

ماذا يطرأ على الطفل ليضطرب فيه هذا السلام الالهي ، وكيف تنتهي تلك الحياة المشبعة سذاجة وطهارة ؟ ما هي العوامل المحوّلة معاني كيانه ، تميت فيه الشعور بالاتحاد والتضامن وتقلعه تميز الفرد من الجمع فينتبه فجأة فيجد نفسه في معترك الحياة وحيداً كئيباً ؟

لا تقل ، يا ذا الوجه العبوس ، ان تلك العوامل هي الخطايا !

أوَهل يجني الطفل اثماً ويقترف ذنباً ؟ بل حريٌّ بك ان تقذف اننا لكل شيء جاهلون ، وما علينا سوى الاستسلام والامتثال

أهي الخطيئة التي تنبت البذرة زهرة ، وتنضج الزهرة ثمرة ، ثم تفني الثمرة وتذرها هباءً ؟

أهي الخطيئة التي تحوّل الطيار دودة ، وتمنح الدودة ذاتها ، وتسحق الفراشة هباءً ؟

أهي الخطيئة التي تكسو الطفل رجلاً ، وتجعل منه الرأس بشيبه الشيخوخة ، ثم تهمه السيخ جثة ، ثم تدق الجثة هباءً ؟

وما هو هذا الهباء الذي تضيع فيه الصور ؟ ألا فاقذف باننا لكل شيء جاهلون وان ما علينا سوى الامتثال والاستسلام !

على انه يحلو التلفت الى الربيع الحياة والقاء نظرة على هيكل الذكاء، سواء من العمر أكان ذلك قيظ الصيف ، أو حزن الخريف ، أو زمهرير الشتاء . بل لا بدّ من ان تعاد كرة تجاهي في القلب ذاته قائلاً " وانا الآخر اشعر بالربيع متيقظاً فيّ ! " هذا ما اشعر به اليوم . وتراني نائماً على نديّ العشب في الغابة القطرية لأربع جنّي الماضي . انام رافعاً نظري الى زرقة السماء البادية من

خلال الحريقات الخضراء وأفكر «ترى كيف كانت طفولتي ؟»

أهالني ناسيًا كل شيء لأن صفحات الذاكرة الأولى تشبه التوراة القديمة المخروطة في العائلة أي ان ورقاتها الأولى ذابلة متجعدة ملتوية ، ولا تتيسر القراءة إلا بعد صفحات وصفحات ، عند السطور المحدثة عن طرد آدم وحواء من الفردوس

طفولتي بعيدة العهد يفوتني كثير من حوادثها ولا أعي أيامها القصوى . أعود بأحلامي البها ، وانتقل منها إلى الابدية التي سبقتها ، وتظل البداية المبهمة متراجعة أمامي كلما تتبعها فكري القاصر ، لأن فجر الحياة يختفي في ظلمات الغفلة والحداثة . وأنا في ذلك كالطفل يبحث عن نقطة ارتكاز السماء على الأرض فيعود حيثما تلتف السماء مجددة آفاقها . فيتعب الطفل وتكل قدماه ولا ينال من بغيته شيئًا

على اني ما زلت أذكر أول مرة رأيت النجوم وكانت النجوم تعرفني منذ زمن طويل . كنت في ذلك الحين على ركبتي والدتي ورغم ذلك تسري البرد في جسدي وتملكني رعشة الخوف — فانتبهت انتباهًا غير عادي لذاتي الصغيرة ورفعت والدتي اصبعها مشيرة إلى النجوم اللامعة . فدهشت وفكرت «بأي لباقة صنعت أي كل هذا !» وعادت الحرارة إلى جسدي واطمأنت استسلمت للنوم

واذكر كيف اضطجعت مرة على العشب الأخضر وكل ما حولي يموج ويهتز ويطن ويهمهم . فاقتربت مني جماعة مخلوقات صغيرة مجنحة ذات أقدام متعددة وحطت على جبهتي وعيني قائلة "ذكرك سعيد" . فصرخت ألم في أجفاني وصرخت منادياً أمي . فجاءت وقالت "يا بني المسكين هاقد لسعك البعوض !" ولم أتمكن من فتح عيني لأرى زرقة السماء . وكانت أمي تحمل طاقة بنفسج نضير فأحسست بالريح المسكن ذي الزرقة القاتمة يخترق دماغي . ومنذ ذلك اليوم ما رأيت بالورة البنفسج إلا انتعشت تلك الذكرى في حافظتي ، فأغمض عيني لعل السماء ~~[illegible]~~ الزرقاء القاتمة تخيم على نفسي مرة اخرى

شفيت فانبسط أمامي عالم لم أعهده يفوق منه الجمال جمال الكواكب ويفضل منه العطر عطر البنفسج . وكان صباح عيد الفصح . فالبيوت والدنيا بكراً . فوقفت أنظر إلى الكنيسة القديمة القاتمة ازاء النافذة . لم تكن جميلة كنيسة طفولتي ، انما كانت ~~[illegible]~~ عتيقة جداً ذات منظر رهيب ، باذخة قبل يعلوها صليب مذهب ، وتبدو أقدم ~~[illegible]~~ جميع المنازل المجاورة

ولطالما تمنيت التعرف بمن يسكن فنظرت من شبك الباب الحديدي . وأطلت النظر مرة فلاح لي الداخل خاويا خاليا رطبا مقزعا وليس تحت نفس واحدة . وصرت تعتلكني هزة كلما مررت أمامه فأعدو طلبا للهرب ولكن في ذلك الصباح ، صباح عيد الفصح ، أمطرتنا السماء في الضحى ثم بزغت الشمس في أبهى حلة من الانوار فرحبت جدران الكنيسة القديمة وتألق سطح المصلى الأشهب ، ولمعت نوافذها الكبيرة ، وسطعت القبة بناء صليب الذهبي سطوعا مدهشا تناول كل شيء وهو اليد . وبدا الدور السافل من النوافذ الكبيرة حيا متموجا وهو أبهى من ان يتيسر التحديق فيه . فأغمضت عيني . إلا ان النور الصبيب ما زال يفيض على روحي جاعلا جميع الاشياء لامعة عطرة ترن وتنشد

خلت حياة جديدة تنبض في كأن شخصي الاول تبدل بشخص آخر ؛ واذ سألت عن الاصوات الفخمة المتصاعدة من أعماق الكنيسة قالت والدتي ان هذا نشيد الفصح . لم يتسن لي اليوم معرفة ذلك النشيد الذي فاضت انغامه على روحي ، ولا ريب انه من تلك المزامير الرائعة التي تشربت الى روح

لوتر الصارمة . ولم أعد أسمعه مرة أخرى . أما الآن فعندما أضع
إلى موسيقى بيتهوفن أو موزار مارسلو، أو أجواق هيندل - وأحيانًا عندما
أسمع الأغاني الروحية أشكو تلك والتيرول - أشعر بأن نوافذ كنيستي
القديمة تسطع بنور باهر، وأن عالمًا جديدًا ينفتح أمامي أجمل من عالم
الكواكب وأعذب من عرف البنفسج

هذا ما علق بذهني من تذكارات طفولتي تتخللها وجه أبي
الحنون وعينا أبي العميقتان، وحدائق وأشجار وعنب نخلتي الخضرة، ووالدته
تحمل العناقيد الناضجة، وكتاب جليل تملأه الصور الملونة - التوراة.
هذا كل ما أميزه على الصفحات الأولى من ذاكرتي الذابلة.

لكن ما يعقبه واضحًا جليًا. أرى ملامح الوجوه التي اعتدت
أن أحدق [illegible] وأنادي أصحاب هذه الوجوه بأسمائهم: أبي
وأمي، وإخوتي وأخواتي، والأصدقاء والمعارف والمعلمون وبعض الغرباء..
أواه! يا لحلاوة تذكار تركه الغرباء في فؤادي! ويا لعمق
موضع روحي نقشت فيه أسماؤهم!

الذرى الثانية

كانت على مقربة من بيتنا وراء الكنيسة ذات الصليب المذهب بناية شاهقة
علوها قبب كثيرة. ~~[illegible]~~ شهقت حتى صغرت حيالها بناية الكنيسة ذاتها. وكانت قبرة
زهباء قديمة كقبب الكنيسة على انها لم تظهر فوقها صلبان مذهبة بل قامت على الجوانح نسور
نحرية وخفقت رايات زرقاء على القبة العليا المطلة على المدخل، وقد امتد امامه سلم بمنة
وآخر يسرة ووقف جندي يحرس كلا منهما

نوافذ المنزل عديدة تتجلى من الداخل الحوائر القوسية تتدلى منها الطرر الذهبية
شجار الليمون المنتصبة في الساحة الفيحاء تغطي الجدران بورقها الفضي وتنشر على
الشوارع أريج أزهارها

كثيرا ما رفعت عيني الى هنالك. وعند المساء اذ تطلق اشجار الليمون أعذب
ما تبثه من أريج أزهارها كنت أرى خيالات تجيء وتروح وأسمع انغام الموسيقى
تتردد من أعالي القصر. ثم تمر المركبات الى القصر فيزدحم الرجال والنساء ويصعدون الدرجات
بهم شيماء الصلاح والنبل. بينا نجوم الأوسمة تشع على صدور الرجال والورود والرياحين

تبتسم بين شعور الثناء . فأفكر أنا في بيتي ، لماذا لا أذهب أنا كذلك ؟ "

أخذني يدًا والدي بيدي وقال ، ها نحن ذاهبان إلى القصر . فتأدبْ ، واذا كلمتك الأميرة أجب باحترام وقبّل يدها " . وكنتُ في عامي السادس فوجدتُ في أهل هذا القصر . وكنتُ أسمع الثناء الكثير على أخلاق الأمير والأميرة صاحبي القصر وما فطرا عليه من ميل إلى الاحسان وعطف على الفقراء ، فضلاً عن عدل وانصاف بهما يمثلان الله تعالى على الأرض في معاقبة الأشرار والمعتدين . فحسبتني أعرفهما ، وحسبتُ نظير الصورة التي وضعتها لهما مخيلتي . بل هما كانا من معارفي القدماء لا كلفة بيننا . ولا تكلف كأنهما بعض الأعيان وجنودي في لعبتي

صعدتُ درجات السلّم وقلبي يدقّ بسرعة . وأخذ أبي يوصيني ان أقول "سموك" في مخاطبة الأميرة . ففتحتْ الأبواب ورأيتُ أمامي امرأة طويلة القامة ذات عينين براقتين نافذتين ، تخال آلهة تولّاً إليها تمدّ يدها لأضع فيها يدي . ولوجهها هيئة ألفاذهني ونصف ابتسامة مجوبة تلعب حول ثغرها بلطف . فلم أتمكّن من ضبط نفسي . وفي حين ظلّ ابي واقفاً قرب الباب ينحني (لا أدري لماذا) انحناءً عميقًا خففتُ أنا إلى السيدة الجميلة وقلبي يقفز إلى شفتيّ ، ثم طوّقتُ عنقها بذراعيّ

وقبلتُ كما أقبل والدتي . فظهر الارتياح في وجهها وداعبت شعري ضاحكة ، إلا ان ابي اشتد بيدي ودفعني بجفاء قائلاً اني صبي شرير واني لن ارافقه مرة أخرى . فأخذتني الحيرة هنيهة ثم انطلق الدم الى وجنتي وكدت بسهم يخترق فؤادي الصغير وان أبي يظلمني . نظرت الى الأميرة استمد دفاعاً فلم أر على ملامحها غير الرصانة واللطف . وأدرت ببصري في القاعة وفيها من رجال وفتيان ، علي أجد من يحتشم معي ومثلي واذا بهم جميعاً يضحكون . فرطلت الدموع من عيني وجرت نحو الباب وهبطت السلم مسرعاً حتى اشجار الليمون حتى وصلت المنزل والتقيت بأمي . فرميت بنفسي بين ذراعيها والشهيق يقطع صدري

فقالت « ماذا جرى لكَ يا بنيّ ؟ »

قلت « آه لو تعلمين ! ذهبت الى الاميرة فوجدتها جميلة لطيفة مثلكِ يا اماه ثم أتمالكت ان طوقت عنقها بذراعي وقبلت وجنتيها »

فقالت « كيف فعلت ! هؤلاء الناس أشراف المنازل وهم غرباء عنا »

قلت « ماذا يهمني كونهم غرباء ؟ أليس لي ان أحب كل من نظر الي بعين ~~حقيرة~~ باسمتين ؟ »

معقولتين

قالت: "لك ان تحب من تشاء يا بني . ولكن عليك ان تكتم حبك ولا تظهر منه شيئاً"

قلت: "ان لم يكن حب الاذياء جريمة فلماذا لا يجوز لي ان أظهره؟"

فتنهدت امي وقالت: "انك لمحبب . لكن عليك ان تطيع والدك . وعندما تكبر سناً وذهباً تعلم لماذا لا يجوز ان تطوق عنق كل سيدة جميلة ذات عينين لطيفتين"

وكان ذلك اليوم كئيباً . عاد ابي الى البيت وكرر الى امي التعريف . وفي المساء بكيت بين يدي امي الى سريري فجثوت وصليت . غير اني لم انم الا بعد ارق طويل متئلاً من هم الفقراء الذين لا تجوز محبتهم

والوعتاه عليك يا قلب الانسان ! ان اوراقك لتجف في ربيع ايامك والريش يتساقط عن جناحيك قبل الأوان . عندما يبدأ الغرض في الحياة في افق النفس فأول ما ينتشر فيه عبير الحب . نحن نتعلم السير والوقوف والكلام والقراءة لكننا لا نتعلم الحب ، لأن الحب جوهر الروح وجميع قوى الروح تناديه بأهوائها المختلفة . وقوة الحب اهم أصل غريزة الطبيعة في أعماق الكيان . فكما تجذب الاجرام السماوية بعضها بعضاً بالجاذبية الأبدية كذلك تجذب الارواح المتآلفة بعضها بعضاً وترتبط الواحدة بالاخرى برباط الحب الأبدي . حيرات للزهرة

ان تعيش بلا شمس وللانسان ان يحيا حياة عظيمة بلا غرام

أليس ان قلب الطفل يكاد يتمزق اشتياقاً اذ تهب عليه من الجهات السماء الباردة الأولى في هذا العالم الزئبقي ؟ ولكن هاهب والديه يطل لامعاً في الحاظهم كأنوار سماوية واسعة الهيبة

حينئذ الطفل أطهر أنواع الحب وأبعدها غوراً وأشملها طبيعة لأنه يحتضن العالم بأسره منكباً على كل نظرة ودودة، مهتزاً لسماع كل نغمة عذبة. هذا بحر عميق زاخر لا قرار له وهو ربيع كنوز لا تقدر وخيرات لا تحصى. وكل من اختبره عرف ان الحب لا يقاس ولا يكال ولا يوزن، وانه لا زيادة ولا نقصان فيه

حلبه وروحه وبمجموع قواه وافكاره

لكن واحسرتاه! ما أقل ما يبقى من هذا الحب بعد الوصول إلى نصف رحلة الحياة! عندما يعلم الطفل ان في العالم "غرباء" وبينهم من هم أولئك الغرباء تنتهي أيام طفولته. فيختفي ينبوع الحب وتتحقد أقدام الأعوام والاختبار. ويوم تتلاشى لمعان العين الطاهرة فتحل محلها خيالات التعب والريب ينظر الانسان اخيه نظرة الغريب الى الغريب ويتحاشى الدنو منه في الشارع المزدحم. يمر غير مسلم خوفاً ان لا ترد التحية فتشوجع

روحه ، لأن الانسان ذاق مرارة الهجر من أصدقاء طالما بادلهم تحية الرؤوس وابتسام الشفاه ولمس الايدي . الريش البري ليث قط عن جناحي النفس ، وتجف ورقات الزهرة ذكر وتتمزق ، ولا يبقى من منهل الحب سوى قطرات قلائل لارواء غليل التائه في صحراء الحياة . تلك القطرات نظل ندعوها حبًا . فأين هي من حب الطفل الفياض الجواد ؟

ليس هذا سوى حب ممزج بالشك والغموم وثار الانفعال المضطرم . حب يغني ذاته بذاته كقطرات المطر على الرمال الحارة . حب يطلب دوامًا ولا يبذل يومًا . حب يسأل " ازيدان تكون لي ؟ " ولا يقول " يجب ان اكون لك " . حب يستغرق نفسه ويذيب نفسه ، ولا شيء نفسه ، وهو معذب يائس . هذا هو الحب الذي تترنم بوصفه الشعراء ويتوق اليه الفتيان والفتيات . شعلة تلتهب ثم تنطفي ولا تدفئ ، وتذهب تاركة بعدها الدخان والرماد . جميعنا يعتقد ولو [illegible] ان هذه الاسهم النارية إنما هي آية الحب الدائم ، ولكن كلما استعرت تلك النار وعظم نورها الموقوت قرب خبوها وحلكت ظلمة الليل الذي يتبعه

وساعة يسود الافق ويدلهم حول الواحد منا فيرى نفسه وحيدًا شريدًا

بين أن ترين يمنة ويسرة" دون ان يعيروه لفتة إذن تنهض عاطفة منسية
وتمشي في صدره ذهابا وايابا ، ولا يدري أهي حب أو صداقة ، ويود ان يصرخ لكل من
أولئك الغرباء ، ألا تعرفني ؟ ،

اذ ذاك يشعر بأن الغريب أقرب إلى الغريب من الاخ إلى اخيه ومن
الاب إلى ابنه ومن الصديق إلى صديقه ، ويدوي في طبقات ذاكرته صوت مجهول قائلا ان
هؤلاء ، الغرباء ، أقرب اصدقائنا وأعزهم لدينا وأحبهم عندنا

إذاً لماذا نمر بهم حاشين ؟ ذاك سر لا نصل إلى قراره وعلينا ان نمثل .
عندما يمر قطاران وأنت في أحدهما وفي الآخر وجه يود ان يبتسم حاول مد يدك لمصافحة
الصديق المبتعد عنك قدرا ، حاول ذلك وجربه وربما علمك لماذا يمر الانسان بالانسان
حاشا .

قال فيلسوف قديم : رأيت بقايا سفينة أغرقها العاصفة عائمة على صفحة البحر ،
جفل يتلامس ويلتقي الى حين . ثم تهب الريح فتفرقها شرقا وغربا دون أمل في اللقاء .
ذلك مصير بني الانسان في بحر الحياة ، ولكن ليس بينهم من كان عرق السفينة

الذرى الثالثة

عيون الحزن لا تبقى
لا تلبث الدموع (طويلاً) في جوّ حياة الطفل بل تتبدّد بتدفق من عينيه
دموعًا. لذلك عدتُ بعد أيام إلى القصر فأعطتني الأميرة يدها وأتبع لي تقبيلاً. وجاءتني
بأولادها الأمراء والأميرات فأخذوا يتقاسمون الألعاب ويتشاركون في الملاهي. ثم إن الذين
يرجع عهد تعارفهم إلى سنوات خلت. تلك أيام هنيئة، لأني بعد تعلّمي المدرسة —
وكنت بدأتُ أذهب إلى المدرسة — كان لي أن أتوجّه إلى القصر فاجتمع برفاقي وبين أبناء نيا
ما يشتهي قلب الطفل من لعبات ودمى كثيرًا ما أرتمي والدمي وراء زجاج الخوانيت الكبيرة، قائلةً
إلى بائعة الثمن قد تكفي قيمة الواحدة منها لإعالة العيلة الفقيرة أسبوعًا كاملاً. ومثلاً
كتب الصور الجميلة التي ابتعتُ أبي يقلّبها عند أصحاب المكاتب ويقول إني لا أشتري
لغير الأولاد الصالحين كلّ الصلاح. هاهي لي الآن في القصر أقرأها وأتمتّع في صفحاتها
ساعاتٍ طويلات، لأن كلّ ما يخصّ الأمراء الصغار يخصّني — أو بالحري هذا ما أزعمه.
إذ لا تقطر حريتي على استعمال ذلك المتاع الصبياني عند أصحابه بل أنا مخيّرة في أخذ ما أريد منه
إلى البيت وفي التصرّف به. واهدائه إلى أولاد آخرين. وزبدة القول إني كنتُ
أشتري أنيًا بأوسع معاني الكلمة

وكانت الأميرة تلبس يومًا أفعى ذهبية التفّت حول زندها التفاف الحياة والاحتراس . فدفعت بها إلينا لنلاعبه . وعند الانصراف لويت الأفعى حول ساعدي لأرعب أمي في الظلام . فلقيت في طريقي امرأة توسّلت إليّ ان أُريح الأفعى ، ففعلت فتنهدت وقالت انا لو ملكنا لخلص بنتي زوجي من عذاب السجن . فلم أتردد لحظة في مناولتها وهبت أعدو تاركًا المرأة والسوار الذهبي بين يديها

وحدثت في الغد جلبة وضوضاء إذ جيء بالمرأة إلى القصر تبكي وتنتحب وقد أتهمت بان اغتصبتني الأفعى . فاستشطت غضبًا وصرحت بتحمس وحدة ، انا وهبتها السوار ولا اروم استرداده . لا أدري ماذا جرى بعدئذٍ . على انى صرت منذ ذلك اليوم أعرض على الأميرة كل ما أعمله مع إلى البيت

وطال اختلاط المعنيين في ذهني كما طال عجزي دون التمييز بين اللونين الأحمر والأزرق . وآخر مرة ضحك مني أصحابي لمثل ذلك كانت يوم أعطتني والدتي نقودًا لأبتاع تفاحًا . أعطتني عشرين بارة وكان ثمن التفاح نصف هذه القيمة . فقالت البائعة بحدة خلته عربيًا انا لم نبع شيئًا منذ الصباح وليس لديها من النقود ما يرد إليّ ، وتمنت ان اشتري تفاحًا بعشرين بارة . فتذكرت ان في جيبي قطعة نقود أخرى من ذوات العشر بارات ، وسررت ان اهلك المحل بنقدها

تلك القطعة قائلاً « الآن تستطيعين ان تؤدي العشر بارات الباقية ». فلم تفاجئني المرأة المسكينة بل أعادت إليّ قطعة العشرين بارة واستبقت لنفسها قطعة العشر بارات

كنت أذهب كل يوم اتحرك الأماكن في العابهم واتعلم معهم الموسيقى. ومنذ ذلك الحين أرى صورة ترتفع من أعماق ذاكرتي. تلك هي ابنة الأمير الكونتس ماري التي توفيت والدتها اثر وضعها فتزوج الامير بعدئذٍ بالاميرة الحالية. تلك الصورة تتصاعد في شفق ذاكرتي بتمهل وابهام. ذهبي في البدء خيال سابح في الهواء يتشكل ويتكيف قليلاً قليلاً مقتربا مني، حتى يقف أخيراً أمام نفسي طفلاً كالبدر يشق عجاب الغيوم بعد زوبعة شديدة ويبرز فيبهر وجه الليل. كانت الفتاة أبداً مريضة تتألم حاشة. ولم أرها حياتي إلا ملقاة على سرير ثقال يحملانه إذا غرقنا رجلان ويحملانه معي إذا تعبت أو تبت. هناك كانت ترقد بين الأشجة البيضاء، تبدو يدها على صدرها، ووجهها حيث وإنما مليح معقول، وعيناها عميقتان لا قرار لغورهما. فأقف حيالها مشدوه الفكر، وأحدق في عينيها متسائلاً ما إذا كانت هي الأخرى من «الزباء». فتضع يدها على رأسي وتتملك أعضائي هزة والبت جامداً صامتاً بلا حركة ولا كلام، وكل قواي تظل من

حدقتي مع تينك العينين العميقتين اللتين لا قرار لهما

كانت تكلمنا نادراً غير ان نظرها يرقب كافة أفعالنا . ولم تكن تتذمر مهما أفرطنا في رفع الصوت واثارة الجلبة . بل تنقل يديها الى جبهتها العاجية وتغمض عينيها كمن يشكو لم للصداع . وتشد بتجن صدغيها في أيام الحر فتستوي فوق مضجعها وترى على وجنتيها زهرة الفجر الباكر . فتحدثنا الأحاديث المسلية وتقص علينا الحكايات المدهشة . لست أدري كم كانت سنها على أنها كانت ماعلاها الطويل وضعفها شبيهة بالأطفال ، يدارونها الجميع ويداورونها برفق واحترام ويعتنون بها بالملك ، ولم أسمع عنها يوماً سوى الكلمة الطيبة . أما أنا فكنت أقف حيالها خاشعاً ، وعندما ارها حاسة بأنها وأفكر في انها لن تعرف يوماً لذة النهوض والسير من مكان الى مكان بمجرد دافع الارادة ، وانها ليس عليها من عمل تؤديه ولا من مسرة تتمتع بها بل ان شريرها هذا في الحياة انما هو رمز النفس في مرقدها الأخير — اذ ذاك اتساءل لنفسي لماذا جاءت هذا العالم وهي أهل لأن تذوق راحة رضية في حضن الله أو ان تحمل على اجنحة الملائكة البيضاء على ما نراه ممثلا في الصور المقدسة . ثم اشعر بوجوب مقاسمتها آلامها لئلا تقاسي وحدها جاهلة ان قربي قلبا يتألم لألمها ويحتمل معها . ولكن كيف أبوح لها بما يجول في خاطري وانا غافل عن وجودها ؟ كل ما كنت أعلم انه لا يجوز لي ان القي بنفسي على عنقها لئلا اتسبب لها كدراً وغماً فاكتفي بالابتهال الى الله من أعماق قلبي ان يريحها من متاعبها

أُدخلت علينا في يوم حار من أيام الربيع وفي حبة كل الشعوب، أما عيناها فكانتا أشد لمعانًا وأبعد غورًا. فجلست على مضجعها ونادت بنا وقالت "اليوم تذكار مولدي. هذا العيشة معكم طويلة ولكن قد يدعوني الله إليه في القريب العاجل. ولما كنت راغبة في ان لاتنسوني تمامًا بعد رحيلي جئت كلاً منكم بخاتم يلبسه الآن في السبابة ويظل ينقله إلى الاصبع المحاذي كلما مرت الأعوام حتى يستقر في الخنصر وهناك يبقى مدى الحياة"

وعمدت إلى خواتم ذهبية في أصابعها فنزعتها واحداً بعد الآخر وعلى وجهها امارات حزن عميق يمازجه حب ولين. فأغمضت عينيها لثلا أبكي. فأعطت أخاها الأكبر الخاتم الأول وقبلته، ودفعت الخاتمين الثاني والثالث إلى اختيها الاميرتين، وكان الخاتم الرابع نصيب الأمير الأصفر، وقبلتهم جميعًا. وكنت أقف قربها محدقًا في يدها البيضاء، محدقًا في خاتمها الوحيد الباقي في اصبعها. ثم استلقت على سريرها منهوكة القوى فتبع وكتها نظري والتقى بنظرها فوهبت بلا ريب ما يدور في خلدي وسمعت ما يهمس به قلبي لأن الحاظ الاطفال شديدة التعبير بليغة المعنى. حزنت لإغاظتي، ولو حاولت مراضاتي الآن ما رضيت ان أنال الخاتم الأخير لأن التخلف انما يدل على اني غريب لا أحبها، وانها لا تحبني بحبها لأخوتها وأخواتها. وحرت تمامًا في قلبي

كمن فتح أحد عروقه أو قطع بعض أعصابه، ولم أعد أدري أني أوجه نظري لأمنع كربتي

فجلست من جديد ولمست جبهتي مرسلة في عينيّ نظرة استقصاء واستقراء

أشعرتني بأن ما من سرّ في إلا اكتنهته الفتاة وما من فكر إلا قرأته. وشحبت

خاتم الأخير من يدها متمهلة وقالت: وددت أن يصحبني هذا الخاتم يوم أفارقكم ولكن

البتّ أنت فذلك خير وكفى في عندما أصير بعيدة عنكم. اقرأ الكلمات المنقوشة

على الخاتم "حسب مشيئة الله". أما قلبك هذا فقد أفعم حرارة ورقة، ألا فلتروّضه الحياة

وتنهه دون أن تقسّيه!" ثم قبلتني كما قبّلت أخوة وأعطتني الخاتم

ما أصعب الوصف وما أعياه! يومذاك كنت أكاد أكون صبيا فكيف تنفذت قلبي

من سحر ذلك الملك المتألم ولطفه؟ كنت أحبها كما يحب الصبي — والصبيان يحبون بحرارة

وصدق خطرة قلّ منهم من يشعر به في الشباب والرجولة — على أني ذكرت آلامي "الذهبية"

اللذين قوّمت على المجاهرة بحبهم ولكني شعرت بتقارب روحينا وتبلاسهما بأرق ما تتلامس

به أرواح البشر. زالت المرارة من قلبي ولم أعد أشعر بأني وحيد، ولم أعد أشعر بأني غريب عنها

تفصل بيننا هوة أو مرتبة. كنت سعيدا، كنت فرحا، كانت روحي تلمس روحها، فحببت

ثم رأيت استبقاء الخاتم الذي ودت أخذه إلى القبر، رأيت استبقاءه مع حرمانها

وحرمانا لها، وتعالت في نفسي عاطفة طغت على كل عاطفة سواها فقلت قلقا "يجب عليك

الاحتفاظ بالخاتم ان شئت ان يكون نصيبي . لأن ما لك هو لي "
فألطفت النظر فيه وجرّته دهشة متأملة ، ثم تناولت الخاتم ووضعته في اصبعها
وقبّلت جبهتي مرة اخرى وقالت بصدق العذب الرقيق ، انك لا تدري
ماذا تقول ، إني الفتى ، فحاول ادراك نفسك ~~[illegible]~~ لتسعد
ايامك وتسعد الآخرين معك "

الذكرى الرابعة

تجتاز من العمر أعوامًا بمائل تتابع همرًا طويلًا قامتا على جانبيه أشجار الحور
تحجب عنا استدارة الأفق فنظل جاهلين أي الأنحاء نجوب ، ولا نحفظ من سوى كثيب
الذكر اننا قطعنا من الايام مراحل وتقدمنا في السن . ولهو في حداثتنا بمراقبة المد المنبسط
من نهر الحياة فيلوح لنا المشهد واحدًا وان تغيرت منه المناظر وتجددت على الشطين . فاذا
ما بلغنا شلالات الحياة — شلالات الجهاد والعناء والألم — كان عملاً في نفوسنا
شديد الأثر ، وكلما ابتعدنا عنه زاد تعالي ضجيجه وصفيره وضجيجه . حتى اذا اخذنا في
الدنو من أوقيانس الأبدية اضمحل في ذهننا معناها ، ووضحت لنا أهميته ، فشعرنا بأن القوة
التي ما فتئت تمدنا بالنشاط والوثبة والحركة وما زالت تسوقنا إلى الامام نحو غاية سامية
انما تلك الشلالات أصلها ومصدرها ، ومنها مبدأ الذي لا ينضب
انقضت مدة دراستي ومرضت معي أوقات السرور والخلق وذوى من أحلامي
الجميلة كثير ، على انه بقي لي ايماني بالله وحسن ثقتي بالبشر . رأيتني الحياة شديدة الاختلاف
عما صورته مخيلتي ، ولكن الشؤون بدت لادراكي كبيرة تزينها المعاني الرفيعة السامية . وما

أشكل عليّ وجلب غمّاً وألماً حارتي تقديري أقوى شاهد على ان يد الله تدير الكل
وكان الكون فليس لعقولنا المحدودة ان تحصر تلك الحكمة المتناهية . " لا يقع شيء إلّا
باذن الله وشاءه " هذا هو المبدأ الفلسفي الذي يرضي راحتي ويعزيني

عدت في عطلة الصيف الى بلدتي . فرح العودة وفرح اللقاء — من ذا الذي يتوهم لذة تتذوقها قبل أن يشرع أسبابها ؟
من ذا الذي يتوهم لذة تتذوقها قبل أن يشرع أسبابها ؟ في ان نرى مرة اخرى ما رأيناه
وان نجد من جديد ما سبق وعرفناه قدماً ؟ يكاد يكون التذكار سرّ كل تمتع وكل متعة
قد يكون مازاه وسمعه وتذوقه لأول مرة جميلاً مرضياً لذيذاً على انه يدهش اجدته
وغرابته فلا يتم الهناء به لأن مجهود السرور يجيء غالباً أقوى من السرور نفسه . ولكن
إذا سمع المرء بعد مرور أعوام نغمة قديمة كان يزعم انه نسي كل نبذة من نبذاتها فعرفتها روحه
وعانقتها كأنها صديق عزيز ؛ أو وقف أمام صورة العذراء ناظراً في عيني طفل تحمله فتشبهت
فيه عواطف اعتادها عند هذا المشهد في صغره ؛ أو اشتشق زهرة أو ذاق طعاماً لم يذره
منذ زمن الحداثة — شعر بلذة لا يدري
لعلها أهي آتية من السرور الحاضر وحده أم هي مجموعة بين حظ الساعة المارة وتذكارات
عهد ماضي

كذلك يعود الطالب إلى وطنه بعد غياب أعوام فتخوض نفسه بحر خواطر تحملها
شراع الموجات المتنحية نحو شواطئ الأيام الفضية ، وإذ يسمع ساعة البرج تدق يضطرب خوفاً
من التأخر عن ميعاد الدرس ثم يعود من رغد جذوره بانقضاء أيام الدراسة . يرى كلباً يعبر
الشارع هو الكلب الذي طالما لاعبه في الماضي ، وها هو الآن قد كبر وشاخ حتى قام الفراغ
مقام أنيابه . وهناك بائع السلع المتجول الذي طالما جربنا نفاحاته وما زالت
في حلقنا ، رغم غبار يلتصق به ويغلفه ، إشارة ضعف النفاع في العالم . وهناك
هدم منزل قديم وشيد غيره مكانه . ذاك كان منزل معلم الموسيقى . ما كان أبهج
الوقوف تحت نوافذه في ليالي الصيف والأضواء ما يبتدره ارتجالاً للتسلية بعد ساعات العمل
الطويلة ، فتنطلق الألحان كأنها بخار تجمع في نفسه خلال النهار فأنه يعتقه
ليلقي عنه حملاً ثقيلاً . وهنا في هذا الزقاق الضيق الذي كنت أخاله أوسع قليلاً -
هنا اجتمعت ليلة بابنة الجيران الجميلة . لم أكن فيما مضى لأجرأ على محادثتها والنظر إليها .
على أننا نحن الصبيان كنا نتناقل أخبارها في المدرسة ونسميها «الفتاة الحسناء»
فان رأيتها آنية في الشارع عن بعد ، اغتبطت لهذه المصادفة دون أن أطلب الدنو
منها . وكان لي مرة في هذا الزقاق المؤدي إلى المقبرة اتكأت على ذراعي وأنا أنتبي

ان أسير إلى البيت . مشينا ولم نتبادل بكلمة طول الطريق . كنت صامتاً وظلت هي ساكتة ، ولكن سروري كان من الشدة بحيث اني الآن بعد مرور أعوام ، إن ذكرت تلك البرهة تمنيت انقلاب الزمان ورجوع ما لا يرجع ليتسنى لي السير مرة أخرى صامتاً سعيداً تستند على ساعدي الفتاة الحسناء"

وهكذا تتوارد خاطرة اثر خاطرة حتى تفيض الموجات الذكرى فوق رؤوسنا ونسل زفرة تلفتنا إلى ان الحبس أقلق النظام التنفس منا . فيختفي عالم الاحلام بغتة كما تتلاشى الاشباح عند صياح الديك في الضحى

ولما مررت أمام القصر القديم المحاط بأشجار الليمون ورأيت الراس على خيلهم عند الدرجات العاليات تواثبت التذكارات متلازرة في خاطري واكتأبت لدوران الأيام . لم أدخل هذا القصر منذ أعوام عديدة . لقد توفيت الأميرة ، واعتزل الأمير هذه الحكومة وسكن منزلاً منفرداً في ايطاليا ، بينما انجلد الأكبر الذي نشأ واياه أصبح نائباً عنه . يقيم في هذا القصر نخبة من شبان الأشراف والقواد يتمتع بحديثهم ويتمتعون بعشرتهم . فكيف لا يحب أصدقاء طفولته غرباء عنه ؟ ومما أرغبني في الابتعاد اني كنت ضابطاً ألمانياً ، عرف احتياج الشعب الألماني من جهة وخطأ الحكومة الألمانية

من جهة اخرى ، كنت انضممت إلى حزب الأحرار واعتنقت نظريات المغايرة

للنظريات بلاط الملوك كل المغايرة

نعم ، منذ أعوام لم أصعد على منبر ذلك الدرج . ورغم ذلك الفظ كل يوم

اسماً ظلت صاحبته في هذا القطر ومثلت صورتي في ذهني لا تجافيني . اعتدت ذاتي

الجدي وبعادها لأني نمت خيالاً جميلاً تلك وثقت من ان لا أصل له في الواقع . صارت

ملكي الحارس وذاتي الاخرى ، أحاديث ساعة احاديث نفسي ، واستشيرها وأعمل برصيحتها .

لست أدري كيف تجسمت في هذا الحد على قلة معرفتي لي . ولكن كما ان النظر

يبدع من السحب اشكالاً كذلك حفظت ذكرياتي فولدتني تلك الاطيفة وكلمت من

خطوط الحقيقة الضعيفة الواضحة صورة كاملة بارزة . أصبح تعاقب أفكاري محاورة

بيني وبيني ؛ وما هو حسن في ، وكل ما انوق اليه ، واسعى في سبيله ،

وأؤمن به - ، كل ذاتي المثلى كانت تحفظ ، كانت مرهفة اليد كما انها

آتية من روحي ، من روح ملكي الحارس الأمين

أقمت في بيت العنبة أياماً فجاءني في ذات صباح برقية مكتوبة

بالانجليزية من الكونتس ماري ، وهذا نصها :

"صديقي العزيز

"يبدو أنك ستقيم هنا زمناً . نحن لم نلتق منذ أعوام طويلة .

فان أردت ان نلتقي مرة أخرى فاني اسر كل السرور بمشاهدة صديق قديم

تجدني وحدي بعد ظهر اليوم في الكوخ السويسري

"لك باخلاص

ماري"

فجاوبت فوراً بالانجليزية اني سأزورها في الموعد المطلوب . ولم

يكن الكوخ السويسري سوى جناح من القصر ينفتح على الحديقة ويتيسر الوصول اليه

دون المرور بباقي القصر الكبير . ولما ازفت الساعة الخامسة اجتزت الحديقة

متغلباً على انفعالي ، مستهيئاً لمقابلة رسمية ، مؤكداً "لملكي الحارس" في داخلي ان لا

شيء بيني وبين هذه السيدة . ولكن ما معنى قلقي واضطرابي ؟ ولماذا لا يوحي إليّ

"ملكي الحارس" ما اتطمئن به وأرتاح إليه ؟ أخيراً تشجعت هامساً لنفسي

بكلمات سخرية بالحياة ، وطرقت باباً ~~[illegible]~~ فتح

فكان نصف مفتوح

وقالت

وجدتُ في الغرفة سيدةً لا أعرفُ خاطبتني بالانجليزية ~~وقالت~~ ان الكونتس آتية في الحال . ثم خرجت وتركتني وحيداً ولديّ الوقت الكافي لألقي نظرةً على ما يحيط بي

كانت جدران الغرفة من خشب السنديان يدور حولها نقشٌ بارزٌ فيه ورقيات اللبلاب وتصاعدت معرّشةً في السقف . كذلك كانت الطاولات والكراسي وأرض الغرفة من خشب السنديان وقد تحاذى فيه الحفر والنقش . وتوزّع هنا وهناك كثيرٌ من أمتعةٍ ألفتُها في غرفة العابنا القديمة وقد أُضيف اليها أمتعة جديدة ، لاسيما الصور والرسوم . وكانت هي الصور بعينها التي اخترتُها لتزيين غرفتي في الجامعة : فوق البيانو صور بتهوفن وهيندل ومندلسزهن ؛ وفي احدى الزوايا ~~[illegible]~~ زهرة ميلو وهو في تقديرين أتمّ وأبدع تمثالٍ أبقته لنا المدينة القديمة . وعلى الطاولات كتب دانتي وشكسبير وجوته ~~[illegible]~~ مواعظ نوكس ، وكتاب "اللاهوت الألماني" ، وأشعار روكرت وتنسن وبورنز ، وكتاب كارلايل "الماضي والحاضر" ، وهي الكتب نفسها التي كنتُ أقلّبها قبل ان اجيء الى هذا المكان . فاجتذبتُ الى دائرة التأمل ، بيد اني حاولتُ التملص منها ووقفتُ أمام صورة الاميرة المتوفاة . عندئذٍ فتح الباب ودخل الرجلان اللذان عهدتهما في حداثتي

يحملان الكونتس على سريرها

يا للعذوبة تلك الرؤيا ! كانت حانية لا تتحرك وبقي وجهها هادئاً كصفحة البحيرة حتى غادر الرجلان الغرفة . اذ ذاك حدقت نحوي عينيها - تينك العينين القديمتين اللتين لا يدرك غورها - وتألق وجهها فانقلبت كل هيئتها ابتساماً. ثم قالت « كنا صديقين ولا اظننا تغيرنا في صداقتنا . لذلك لا يمكنني ان أقول « انتم » وحيث ان العادة لا تسمح ان أقول « انت » بالألمانية فلنتخاطب بالانجليزية !!. أليس كذلك ؟ »

لم أكن أتأهب لمقابلة كهذه . رأيت ان لا تمثيل هنا ولا مجاملة ، ولا رياء . هنا روح تتوق الى روح اخرى . هذا ترحيب صديق عرف عيني صديقه . وراء القناع الثلجي الوجه الغارق في الاتقاني . فأخذت يدها التي مدتها الي وقلت « من حادث الملائكة لا تقول « أنتم » ولكن ما أعظم قوة كمنت في قوالب الحياة واصطلاحاتها ! وكم تتعذر التكلم بلغة القلب حتى مع أشبه الأرواح بأرواحنا ! تتعذر ذلك فاضطرب حديثنا وتضعضعت أفكارنا وشعرنا بارتباك مزعج حاولت التخلص منه بما حضرني من الكلام فقلت :

---

(١) الألمان كالافرنسيين لا يستعملون ضمير المخاطب المفرد « أنت » إلا بين افراد العائلة وبين الاصدقاء الأحماء . أما الانجليز فيخاطبون الجميع حتى الأقربين بالجمع . ولا يستعمل عندهم المخاطب المفرد « أنت » إلا في الصلاة والشعر وما نحوه من مناهج البلاغة (المعربة)

"لقد اعتاد الناس عيشة الأقفاص منذ الحداثة. فإذا ما وجدوا نفوسهم فجأة في الهواء الطلق لا يجرؤون على تحريك أجنحتهم ويتجنّبون الاصطدام بالصخور إذ هم حلّقوا في الفضاء الوسيع!"

فقالت "هو ذلك، وهو عين الصواب وليس نقيضه بالممكن. لا ريب اننا نودّ أحيانًا ان نكون كالطيار أحرارًا نتنقّل على اسراب الغابات ونلتقي فوق الأغصان ونغرّد سويًا ثم نفترق دون ان يعرف أحدنا الآخر. ولكن اذكر يا صديقي ان بين الطيار غربانًا يؤثر تجنّبها. ولعلّ حياة كالشعر: فكما يحسن الشاعر سبك المعاني الجميلة والحقائق الخالدة في قوالب معيّنة كذلك على الناس صيانة حريتهم الفكرية والوجدانية ضمن قيود المجتمع ودون الايذاء بأو التطاول عليها."

فأجبتُ مستشهدًا بقول الشاعر بلاتن "أيّ شيء أثبت نفسه خالدًا في كل مكان؟ ذاك هو الفكر الحرّ في قيود الألفاظ" (١)

---

(١) "Denn was an allen Orten
Als ewig sich erweist?
Das ist in gebundenen Worten
Ein ungebundenen Geist."
Platen

فابتسمت الفتاة ابتسامة خفيفة وقالت « نعم . ولكن لي من أبي ووحدتي ما يحول بيني وبين ما أفكر على سوائي . وكم أشفق على الفتيات والشبان الذين لا يرتبطون فيما بينهم برابطة الصداقة والائتلاف إلا ويفكرون ، أو يفكر لهم ذووهم ، بدنو الحب أو ما يسمونه حبًّا . الفتيات يجهلن الجمال المختفي في نفوسهن وقد يكفي لاظهاره حديث جدي رصين مع صديق نبيل . والشبان يتعشقون فضائل الرجولية ويمرنون نفوسهم على المحامد والمكارم إذا شدوا بمراقبة امرأة تحوم حول جهودهم وتتابع الحركة الفنية كانت أنعم علينة . ولكن للأسف ذلك لا يكون . لأن الحب لا يلبث ان يقتحم الميدان . الحب أو ما يسمونه حبًّا : أي ضربات القلب المتسارعة المتباطئة ، وعواصف اليأس والرجاء ، واللذة بالنوجه المحبوب والتصورات المرضية — وقد يرافق هذه غايات واطماع جمة . تهاجم كلها متعاونة على اقلاق ذلك البحر الهادئ العميق ، بحر الصداقة ، وهو صورة صادقة للحب الانساني الطاهر »

صمتت هنيهة فبدا لاحت على وجهها امارات الألم ، ثم قالت « حسبي اليوم كلاما فطبيبي لا يسمح لي بالاطالة . والآن أرغب في سماع تلك القطعة الموسيقية لمندلسون — النغمة المزدوجة — وكان صديقي الصغير يعزف جميلاً فيما مضى ، أليس كذلك ؟ »

لم أجب جوابًا لأني عندما صمتت وضعت ذراعي على صدرها

كالعادة رأيت في خنصرها ذلك الخاتم الذي اعطيته يومًا ثم رددته اليها . وكان تلاطم أفكاري يحول دون البيان . فجئت الى البيانو وعزفت ما حفظت . ولما فرغت التفتُّ اليها وقلت : "هذا لو أنيل الانسان قدرة الافصاح بالنغمات الموسيقية من غير ألفاظ !" .

فقالت : "ذلك وقع لا يحتاج الى التمني . ولقد وعيت كل ما تهمس به هذه الألحان . غير اني لا أستطيع استماع غيرها هذه الليلة لأن ضغينة اليد يومًا فيومًا . على الواحد منا ان يقبل بالدهر كما هو على علاته ، ولنا سكينة عليلة مثلي ان تتوقع بعض الحلم من صديق مثلك سيجتمع ما ، غدًا في الساعة نفسها . أليس كذلك ؟"

لمست يدها وهممت بتقبيلها . ولكنها أوقفت حركة يدي وضغطت عليها قائلة : "هذا خير . الى اللقاء !"

الذكرى الخامسة

يتعذر عليّ التعبير عن أفكاري وعواطفي بعد عودتي إلى البيت . هناك «أفكار بلا ألفاظ» (١) يعزف الإنسان لنفسه في الساعات الخطيرة . لم أشعر بفرح ولا بحزن بل بدهشة فائقة . وصار مثل الهواجس والتصورات المنحرفة ضميري كمثل السفن الهابطة من الجو على الأرض ما أدركت غايتي إلا بعد الانطفاء والاستحالة إلى حجارة سوداء . وكما نقول لأنفسنا في الحلم أحيانًا «إنك تحلم» كذلك قلت لنفسي «إنك يقظان . وهذه هي» .

ثم حاولت استجماع خواطري ولم شعث فكري بقولي «إن الفتاة لطيفة زكية الجنان وقادة الذكاء» . وأخذتني نشوة وطفقت أحصي ما قضيت وإياها في هذه الرحلة . لكن لا، لا . لم تكن هذه سوى سوانح عبرت بباب خاطري ، وذلك الباب ان هو إلا هذه الفتاة هي منتهى ما بحثت عنه ، وفكرت فيه ، ورجوته ، وآمنت به إلى الآن . هذه نفس بشرية عذبة كصباح الربيع ، عطرية كشذا البنفسج ، لامعة كالواحة الكواكب . لقد تبينت منذ النظرة الأولى قيمتها المعنوية وكل ما أودعت من بهاء وسناء

---

(١) في هذه الاستعارة تلميح إلى مجموعة قطع موسيقية للمدلسون المذكور في الفصل السابق واسمها «أغان بلا كلمات» Lieder ohne Worte . قطع غاية في العذوبة الموسيقية الكئيبة الشجية . منذ اللحظة التي قال بطل الرواية في آخر «الذكرى» الماضية انه عزف (المدينة)

لأن الوحين تعارفا

ورحب كلٌّ منا برفيقه ~~لسنا تعارفا~~ . خيل إليّ ان "ملكي الحارس" مضى وتلاشى ؛ وحاولت

انا ~~الملكة~~ فلم تجبني نفسي إلا بما ~~سبق~~ ~~ان~~ في العالم مكاناً واحداً أجدهُ فيه.

وبدأ لنا عيش رغيد ؛ إذ ~~صرنا~~ كنّا نجتمع كلّ مساء ، فنرنا بمهانة صداقتنا ونروح

وأضحى ضمير الجمع "انتم" ~~كفيلاً~~ طفيلياً بيننا فعمدنا بالمخاطب المفرد "أنت" نستعمله كأننا لم نفترق

منذ الطفولة أصلاً . لم تصف عاطفةٌ إلا زادت خيالاً في نفسي ولم ~~تبسط~~ فكرةٌ إلا

أتى بها صادقةٌ كمن يقول "هذا فكري أيضاً" . كنت سمعت أعظم ~~مصر~~ اساتذة الموسيقى

في عصرنا يرتجل وشقيقته الحانا على البيانو ~~فيه~~ فأذهلني ان يتآلف فكر شخصين اثنين

ويتوحد شعورهما فيوضحان الأمر الموسيقي في آنٍ واحدٍ على أتم انسجام لا تخونهما

شاردة ولا شاذة في ابداعها واردة . أما الآن فقد ~~ضاع~~ اتسع فكري فأدركت . اتسع

فكري فعلمت ان روحي لم تكن فارغةً مدقعةً قاحلة ، وانما توهمت كذلك لاحتجاب

الشمس عنها وهي وحدها كفيلة باخراج البراعم والازهار الى الوجود والحياة . ورغم

ذلك كان الربيع حزيناً وفتيت منه فوق نفسنا أوشحة رمادية لأن شهر مايو ورونقه لم يثنيا

ان الورود سريعة العطب وان كلّ شيء ينزع من زهرة اجتماعنا ورقة . شغفني حبي الى الشعور بذلك

وذكرته يوماً دون ان تبدي اشفاقاً أو ألماً . فانقلبت احاديثنا جدية هادئة ينيلاً كلّ منا ~~ما~~ يرى

رصانة وجلالاً جديدين فقالت ، ظننت الموت قريباً عندما اعطيتك الخاتم ، ولم اتوقع

قبلت أودعك مرة فقالت ، ظننت الموت قريباً عندما اعطيتك الخاتم ، ولم اتوقع

ان أعيش كل هذه السنوات . ولكني عشت وتمتعت

بالجمال كثيراً . كذلك تألمت شديداً . إنما المرء يشتهي هذا في السعادة . والآن وقد قربت ساعة الفراق فعلّ دقيقة تواري كنوزاً . مساء الخير . لا تبطئي غداً "

دخلت عليه يوماً وعندها مصوّر ايطالي . كان حديثها بالايطالية ومع انه كان أقرب إلى العامل منه إلى الفنان كانت له لطيفة ودقيقة يخالطها شيء من الاحترام . فتجلّى لديّ عندئذٍ شرف الفقير أي شرف النفس لا شرف المولد . ثم قالت بعد ذهاب المصوّر " أريد ان اريك صورة أعلاه في قصر اللوفر في باريس . قرأت وصفها فشئت ان تنقل لي " . ثم ارتمى الصورة وانتظرت حكمي . وكانت تلك صورة كهل في الزي الألماني القديم ، تلوح على محياه شيماء التفكير والاشتمال لقوة علمية وقد بدا في هيئته واوضاع جسمه معنى الحياة العميق فلم ارتب قط في انه عاش يوماً ولم تبدعه مخيلة مصوّر . كان اللون متغلباً في الصورة النبيّ القائم على ان الجزء الخلقي استحوذ مشهداً طبيعياً نيّراً وظهرت في الافق اشعة الفجر الآتي . لم يذهلني من تلك الصورة شيء إنما أوحت إليّ عاطفة هادئة استطعت بها التحديق في الرسم طويلاً . فقلت " لا صدق يفوق صدق الهيئة البشرية . وان رافائيل نفسه ليعجز عن إبداع صورة صادقة كهذه إن لم يكن صاحبها يوماً "

أجابت ، صدقت . اما الغرض من هذا الرسم فهاكه : قرأت وصفه فعلقت
بعلّة ان اسم ~~صورة~~ رسمه مجهول كما جهل اسم الأصل الذي نقل عنه ؛ ~~بعلة~~ من فلاسفة
القرون الوسطى . فرغبت فيه ليتم به معرض الصور في غرفتي . ولما كان مؤلف
"اللاهوت الألماني" مجهولاً وليس لدينا منه صورة ارتأيت ان صورة وضعت لشخص مجهول
بريشة مصوّر مجهول يصح ان تنوب عن مؤلف مجهول . فان وفقت علقتها بين
الوحي ودعوة "اللاهوت الألماني"

قلت ، فكرة غاية في الحسن . ولكن ربما مثّلت الصورة شخصاً أقوى من كلتور فرنكفورت
وأعبس وجهاً "

قالت ، ربما كان ذلك . ولكني انا الفتاة المتألمة ان نظرة إلى المدت استقيت من هذا الكتاب
قوة ونقوة ، ولمؤلفه عليّ فضل كبير لأنه أعلن لي جوهر المسيحية في باب ضئيل
الصحيفة . فاستفدت ازاءه حرية في ان أومن أو اجحد لأنه لم يرغمني على أحد هذين ، وقبض عليّ
بشدة ، فخيل إليّ اني ادركت معنى الوحي للمرة الاولى . وانك تعلم ان
عن ولوج باب المسيحية دون ان التعاليم تبسط امامنا كوحي علينا ان نؤمن به
قبل ان يهبط الوحي على نفوسنا . وطالما قلت لذلك : لست اعني اني شككت في حقيقة

الالوهية وفي الوهية عقيدتنا . غير اني لم اكن لأكتفي بايمان خلعه على الآخرون وحسبته ان ما تقلته وتقبلته طفلة على غير فهم واختيار لا يستطيع ان يكون خاصتي ولي . الايمان لا يُعار واليقين لا يستعار ولا يجدي التمويه نفعاً . ولا بدّ من اقتناع شخصي نستند عليه ونتعزّى به ، اذ لا أحد يحيا ويموت عن أخيه "

قلت " لا ريب ان كثيراً من المنازعات العنيفة والمناقشات الحادة ترجع الى ان تعاليم المسيح عوضاً عن ان تكتسب قلوبنا سبيناً فسبناً بلا مقاومة كما تملكت قلوب الرسل والمسيحيين الأولين فاننا نجابهها منذ حداثتنا كعقيدة سنية قوية لا تقبل تردداً ولا ترضى جدالاً وترغمنا الى الامتثال لأوامرها امتثالاً مطلقاً تسميه ايماناً . فلا بدّ من انبثاق الارتياب عاجلاً أو آجلاً في كل نفس تميل الى التأمل وتجلّ الحقيقة . وعندما نصل الى تلك الخطوة من السبيل فيتيسّر لنا تحرير ايماننا المستعار المزعوم ، تنتصب في وجهنا اشباح الشك والالحاد والكفر وتوقف فينا نموّ الحياة الجديدة "

فقاطعتني قائلة " قرأت حديثاً في كتاب انجليزي ان الحقيقة تتجلى بالوحي وليس الوحي ليتجلى بالحقيقة . واني لأشعر بذلك تمام الشعور لدى قراءة " اللاهوت الالماني " . وأنه فعلت بقوة حقيقته القاهرة وأرغمت على الاستسلام .

أوحيت الي الحقيقة ، بل اوحيت أنا الى نفسي ؛ وفهمت للمرة الاولى معنى كلمة
إيمان . أصبحت الحقيقة ملكي بعد ان أطالت التمحّص مني لأن أقوال المعلّم المجهول
احترقت كياني كشعاع الضياء ، وأنارت خفاياي جاعلة حيرتي اقتناعاً ، وظمأي
المبهمة ايضاحات جلية . فصممت على قراءة الاناجيل كما لو كانت هي الاخرى مكتوبة
بقلم المعلّم المجهول ؛ وأبعدت عني ما اثر طعت كذلك معاناة من الروح القدس
باعجوبة الى الرسل ، وإذ صودق عليه من مجامع الاثنا عشرة والاحبار فاحتضنته
الكنيسة باعتبار انه الآلية الوحيدة العليا للدين المنقذ الوحيد . عندئذٍ بدأت
الكنيسة مع معنى الايمان المسيحي معنى الوحي المسيحي "

فقلت : من الموكد ان اللاهوتيين لم يفلحوا بعد في حمل البشر
على جحود كل عقيدة كائنة ما كانت . ولكنهم فالحون يوماً
ان لم يحتج المؤمنون بعزم قائلين : كلما ان تبلغوا في شروحكم واحكامكم هذا الحد
ولا تتجاوزوه " . لكل دين حاجة الى الدعاة ، ولكن لم يحتج الى الآن دين
واحد في العالم لم يزيّفه الكهنة سواء أكانوا برهمة أو لاما(١) أو كنيسة وذيّبين .

---

(١) "لاما" هو اسم كهنة البوذيين

يتحاشون موردين شواهدهم وحججهم بلغة لا يفهمه من ابناء ملتهم عشر واحد من عشرة أعشار . وعوضاً عن ان يستوحوا الانجيل مرشدين الاخرين الى استحالة ترجمتهم يجادلون لاثبات صحة الانجيل وعصمته لا من حيث هو انجيل إنما لأنه دونه قوم سلاميون . وهل يكون ذلك سوى حيلة من حيل التردد والقصور ؟ بأي يتبنون الهام اولئك الافراد الى تلك الدرجة العجيبة ان لم ينسبوا الى انفسهم الاما أعجب وأدهش ؟ لا شك انهم فرضوا هذا الافتراض لذلك قصروا موهبة الالهام على آباء الكنيسة المتألفة منهم هيئة المجامع . غير ان هذا التحديد لا يأتي بالجواب المطلوب . إذ كيف نتأكد انه بين خمسين جداً واسقفاً ٢٦ كانوا سلاميين و ٢٤ لم يصلهم من الالهام شيء ؟ يجزم المتطرفون البائسون بأنه يكفي ان يلمس الملهم يد شخص ما لينتقل اليه الوحي والعصمة من الغلط ، ويؤمنون ان العصمة والوحي انما حفظا في رأس الكنيسة (أو في رؤوسها) الى ايامنا بهذه الوسيلة . ويعتقدون ان عصمة أولئك الآباء الذين لا نعرف منهم شيئاً تقضي على كل اقتناع صميم فينا بالبطلان وعلى كل استسلام أكيد بالفساد ، وتنكر كل بحث من ابحاثنا ان لم يتفق مع بياناتها وأحكامها . ورغم كل ذلك يبقى

السؤال القديم في انتظار الجواب : كيف يدري فلانٌ ان فلاناً سلام لو لم يكن
له مثل ذلك الالام على الأقل ~~كهذا~~ ان لم يحمل الالم أوفى وأشمل ؟ ألا يتحتم علينا
حيازة الوحي في ارواحنا لنكتشف آثاره عند الآخرين ؟ ؟

أطرقت ~~صحبتي~~ لحظة ثم قالت ، بصعب الجواب . وطالما كدت في كيفية استجلاء
معاني الحب والتثبت من حقيقته ! كيف ندري ان شخصاً يحبنا أو لا يحب ؟ ~~لم~~ توجد الآن
اشارة واحدة من اشارات الحب إلا كانت عرضة للتزوير والتقليد . فاهتديت أخيراً
الى ان المحب وحده يميز بين الصادق والكاذب من تلك العلامات ، وانه انما يثق من حب
القلب الآخر لأنه واثق من حب قلبه . ولما كانت موهبة الحب شبيهة بموهبة الروح
القدس (الوحي) كان الملهمون وحدهم الذين سمعوا الرياح العاصفات يحيطك أحياناً
من السماء ، وان أبصروا ~~ذوات~~ الفرقعل زعمها السنة نارية . والآخرون يخافون
أو يغضبون ، أو يسخرون قائلين ، كلام عتيق ! أما نحن فنفوسنا ملأى بحكمة
جديدة » . بيد اني أعود الى ما اسلفت وهو ان كتاب « اللاهوت الالماني » هداني
الى ايمان استخرجته من حاجات نفسي فوجدت قوتي القاطمي في ما يراه غيري
خطأ وعيباً ، وهو ان الاستاذ لا يبسط رأيه كقانون منظم بل ينثر افكاره كالزارع
املاً ان تقع بعض البذور على أرض صالحة فتضاعف الغلة الوفا . كذلك استاذنا

الالهي (المسيح) لم يحاول ~~اثبات~~ إثبات بالبرهان تعاليمه (لأن من حدس الحقيقة الكلية استغنى بالمطلق
وأعرض عن جميع ضروب المباهاة والتعنت"

هنا ذكرت شواهد امينوزا وأدلته في "اخلاقياته" وطالما فكرت في
ان ذلك اللاذعي ما اكثر من سدد خيوط شبكته الفلسفية إلا لشعوره بضعف مذهبه
ووهنه. فأجبت محدثتي، نعم. غير أني على ما أوحاه الي "اللاهوت الالماني"
من الخواطر المفيدة لا يسعني إلا الاقرار أني لا اجد في طرق كل العجائب بهذا الكتاب
ينقصه في نظري العاطفة الانسانية والطلاوة الشعرية، لاسيما وانه خلا من عارة
القلب وجحد الواقع ولم يحدثه. روحانية القرن الرابع عشر لا تصلح عندي لأن تكون
اكثر من درس نظري يتحتم ان تعقبه العودة إلى الحياة العملية بعزم وجرأة، إلى تلك
الحياة الواقعية التي عرفها لوثر وعالج منها المصاعب. لا غنى للانسان عن ادراك معنى
العدم، ولو مرة في عمره، ليعلم انه ليس بشيء، وان أصوله بدائية وذاته ثانية عريقة في
أصل يتعالى عن الحدس ويجل عن الحصر. وهذا الاتجاه نحو الله ان لم يقدنا في الحياة
إلى كعبة آمالنا فهو يبقى في نفوسنا وجداً مقيماً إلى مرجعنا وستقرنا الأبدي. ولكن
البون شاسع بين هذا النوع من العبادة وبين انكار بخليقة ~~الوحي الذي يحاصره~~ كما يفعل الروحانيون؛

ولكن ذلك الانسان من اللاشيء أي من الله وبه وحده، فهو عاجز عن العودة إلى اللاشيء بقوته الذاتية. واللاشيء الروحي الذي يكثر "تاولر" الألماني من ذكره لا يفضل "النرفانا" أو الفناء الهندي الذي يقول به البوذيون. تاولر يحرص بأنه لو استطاع حباً بالله واطراداً لخضوعه ان يفنى فناءً لما تردد في ان يسجد امامه تعالى وتلاشى في عمق أعماق الألوهية. إلا ان الخالق لم يرد فناء هذه الخليقة التي أوجدها. وقد قال اغسطينوس انه "في اقتدار الله ان يتجدد انسان وليس في مقدور الانسان ان يستحيل إلى الله". فلا بأس بارواء ذات يفيد ونظرية تثير، بل ترهف النفس وتلطف وتزداد تألقاً. انما ينبغي ان لا تبخس القوى والملكات على نحو ما تفعل النار بالماء غلت في القدر. ومن ادرك [illegible] العبد في نفسه على رغم ذلك ان يؤمن علم بأن ذاته ان هي إلا انعكاس الذات الإلهية الكبرى — جاء في "اللاهوت الألماني":

"ليس كل ما تدفق من منهل الكمال بالجوهر الحق وليس له من جوهر في غير الكمال. ما هو إلا حدث أو بناء، أو مظهر حسي. ليس هو الجوهر ولا جوهر له إلا في النار. مبعث النور، كما ان شعاع الشمس وضوء الشمعة

"ولئن كان ما فاض من الكيان الإلهي كلهيب النار، إلا انه لا بد ان يكون حقيقة الهية في ذاته. إذ قد يستحيل الماء نفسه، وما هي

النار بلا لهيب، والشمس بلا نور، والخالق بلا خليقة ؟" وقبل ان الطامع في استجلاء هذه الغوامض وتفهم حكمة الله إنما رغبته هذه رغبة آدم والشيطان

"حسبنا علماً اننا نفوسنا الكائن الالهي لنجتهد في صقل مواهبنا حتى يوم الكمال. ليستحيل اخفاء النور الالهي من نفوسنا تحت الكمال، فلنذعه إذاً يلمع ويشرق ويضيء محيطنا ويبعث فيه الحرارة، لنشعر بان دماءنا تطهرها نار الحياة. واذ يحل فينا معنى قدسي رفيع يقوينا على اقتحام معارك العالم، وتذكرنا أعذب الواجبات علاقتنا بالله، لا يلبث ان يصبح الأرضي في تقديرنا سماوياً، والزمني أبدياً كأن حياتنا بأكملها حياة فيه تعالى". ليس الله الراحة الدائمة بل هو الحياة الدائمة. وانجيلين سيزيش نخطئ بزعمه ان الله لا ارادة له، في قوله:

"نحن نصلي، إلى الرب الهنا لتكن مشيئتك المقدسة!"
ولكن اسمع وعي أيها المبتهل: لا ارادة لله لأنه الراحة والسكون"

كانت الفتاة تصغي إليّ بهدوء وانتباه. فتأملت دقيقة ثم قالت "القوة والصحة ضروريتان لمن كان له مثل اعتقادك؟ وفي الارض نفوس متعبة تعاني رهقاً شديداً وتصبو إلى الراحة والطمأنينة لأن وحدك تثقل عليك. ليس الراحة والسكينة تودان

إلى احضانها فلا يحسّ العالم بذهابه ولا تأسف هي لفراقه. تلك النفوس تتعزّى في هذه الدنيا بالاتحاد بالله والاستغراق في ذاته الصمدانية؛ وهي تفعل ذلك بدافع إذ لا رباط يربطها بالعالم وليس لها من الاطماع ما يزعج ويقلق. فتتوق إلى الراحة وتراها - كما يراها الشاعر الالماني - الخير الأسمى وترى الله راحة والراحة فيه. ثم اني أجد لامارتين في نفسه "اللاهوت الالماني" لأنه ان قال ببطلان الحياة الأرضية فهو لا ينادي بوجوب هذا. ويقول في مكان آخر ان السكينة والراحة لا يلقاهما الانسان قبل الموت، إلا أنه بارتقائه الروحي يصير شبيهاً بيد الله، لا يأتي أمراً بارادته الذاتية بل بارادة الله، كأنه عزّ وعلا اختاره ليكون فيه. ويقيني ان من امتلأ بروح الله شعر بتلك الحرية الالهية فيه، غير انه لم يكتم هذا السرّ الجليل في نفسه كما يكتم العاشق عن الملأ اسرار غرامه. اما أنا فطالما شدت باني كنبوة الحور المنتصبة امام نافذتي. حيث كنت في الماء، لا تهتز ورقة من ورقاتي ولا يتحرك من أغصاني غصن؛ وعندما يمرّ بي نسيم الصباح فتتنهّد أوراقي يظلّ الجذع راسخاً هادئاً. واذ يعود الخريف وتتناثر اوراق كانت بالامس منعمة حياة فيغدق الذبول يبقى ذلك الجذع في مكانه بلا حراك يترقب مجيء ربيع آخر..."

لقد ألفت الفتاة هذه الحياة الروحية فحاولت اخراجي من حلمي.

أليس اني أنا الآخر لم أفلح في التملّص من هذا العالم السحري إلّا بعد جهد ؟
عنيف ؟ ومن يجزم بأنه ليس هو الذهب الأفضل الذي لا يفنى وانا لسنا بخالدين
نحن الذين نفدو لاقتناص منافع تحطّ منا الهمة وتذبل القلب وتقوض الروح ؟

وهكذا كان كل اجتماع يثير مذاكرة جديدة تكشف لي وجهاً جديداً من نفسي لا تسبر ولا تحدّ . لم يكن حديث سوى تفكير واحد يتشعبان كلاماً مسموعاً بدلاً ان يتعاقبا في وحدة الوجدان . ولم تكن لي آراؤها آراء بل اجزاء حية مني عاشت معي أعواماً لأني كانت تورثها بلا إرادة ، كبنيّة ملأت عمرها ازهاراً وفاحت تلمع على العشب الاخضر . كان يسرني ان لا افتح كتاب روحي تقرأ فيه ملياً كما أقرأ في كتاب روحي . ما أندر المحتفظ منا بفطرته الاصلية في وسط الكاذب اجتماعية نقبلها مذهبين - سمّها ما شئت عادات ، أو آدابا ، أو تكتماً ، او مراعاة ، أو حكمة اجتماعية ! وما أقل من ينجح في التفلت من بين المذهبين المجاهدين ! بل ما أندر من يذكر ان وكاتة انما هي وجه عارية ، وقناع سخرية أسدل على ملامح الحياة ! نحن نكذب في كل شيء حتى وفي الحب ؟ حتى وفي الحب الذي نشكته قهراً ، وننكر عليه التنهد والتلوي والارتعاد ، ونحرجه إلى التواري عوضاً عن التجلي في الاشارات وتقديم النفس ضحية في النظرات . كم من مرة كدت أقول لها

نكذب في الحب الذي نشكته على ان نصرح له بالمس في همهمة الشداء

"انت لا تعرفينني يا بنية" ولكني كنت اشعر بأن كلماتي لم تصدق الصدق كله. فعدت
على ان اترك بين يديها مجموعة اشعار ارنولد التي وردت الي حديثا؛ وان تدعها ان
تقرأ قصيدة الحياة الدفينة: وكان مغزاها الاعتراف بحبي. ثم جلست قرب سريرها
وقلت "ما، الخبر". فردت بقولها "ما، الخبر" ووضعت يدها على رأسي.
فجرت في أعصابي تلك الهزة المستحبة وهب ما رقد في جوانحي من تذكارات
الطفولة، ولم أعد أستطيع حراكا بل ظللت انظر في تينك العينين اللتين لا قرار
لغورهما حتى أفاض سلام روحها على روحي سلاما. ثم نهضت ومضيت حاسرا؛ ورأيت
تلك الليلة في أحلامي صورة طويلة تتلاطم الرياح حولها دون ان تهتز
عليها ورقة أو يتحرك منها غصن

الحياة الدفينة

النور يعلو ويغمر حولنا الظلمة:
انظري، ها ان عيني تراودها الدموع
واشعر بكآبة بهيمة تلتف حولي وتتمدد.
أجل، نحن نعلم اننا نستطيع ان نمزع
ونعلم، نعلم اننا نستطيع ان نبتسم!
ولكن في مراجيح غرقة لا تلطخها كلماتك الرقيقة،
ولا تدنسها منك البسمات.
اعطيني يدك واصمتي قليلا
ولتستقر على عيني نظرة عينيك الصافيتين
لأقرأ فيهما، يا محبوبتي، آيات روحك!

أداه ! هل يقطع الغرام
دون فتح فؤادك واستماع صوته ؟
هل يحظى على المتيمين
إظهار ما تكن قلوبهم ؟
كنت أعرف الناس يفنون بأفكارهم
فلماذا يلقاها الآخرون ببرود وجفاء ؟
كنت أعلم انهم يحيون ويتحركون
نحو عين هادئة ، متنكرين منتشرين ،
غرباء عن البشر ، غرباء عن ذواتهم !
إنما القلب بعينه ينبض في كل صدر بشري !

ولكن نحن ، يا محبوبتي ، أليست ذلك الطلسم الوحيد
قلوبنا ؟ وأصواتنا ؟ — أيجب ان نحس نحن أيضاً ؟
آه ! ما أسعدنا اذا حررنا قلبنا ، ولو لحظة ،
لعللنا قيود الشقاء
لأن السر الذي أطبقا وختم عليه
تقدس في أعماقنا !

القدر الذي سبق فعلم كيف يكون الجهل طفلاً وكيف يكون زهواً
وكيف تتقاذف المطامع فيخوض ميادين الشقاق والنزاع
حتى تكاد تتحور شخصيته ،
فلا يتمكن من وقاية النفس الطاهرة من تلاعب الأهواء
وان أرغما على الخضوع لناموس الكيان ؟
ذلك القدر هو الذي يأمر نهر الحياة في صدرنا
استطراد السير إلى الامام .
فتسير حوله ذلك النهر الدفين
وان لازمناه في اجتيازه عرض البحار
وكنا مثله مسوقين على الدوام .
ولكن كم من مرة ، في ازدحام السبل ،
وكم من مرة ، في جلبة المعارك وضوضاء التقاتل
يتراءى لنا السوق فتنتبه لحياتنا الدفينة ؟
ويتيقظ لدينا احتياج لوقف نار قوانا التي لا تقف السكون ،
ويضيئنا توق الى البحث
عن اسرار القلب النابض بعنف في أعماقنا
لنعرف من اين تأتي أفكارنا والى اين تقصد !
كثيرة هم الذين يحفرون في قلوبهم وينبشون
لكن ، واشقاه ! قل من يشغل القلب وقل من يعمه ويفيه !

عالجنا الجمّ من شؤون الحياة
فأظهرنا في كلّ فن حذقًا ومهارة ؛
على اننا لم نكن كما نحن في ذاتنا القصوى
ولم نسر في السبيل الواحدة سويعة ،
ولم نفصح عن عاطفة
من العواطف المتضاربة في صدرنا ؛
وباطلاً حاولت ان تتكلم وتتحرك
خلال تلك العواطف ذاتنا الخفية الصادقة !

فكانت أفعالنا وأفعالنا
بليغة وحسنة — ولكن غير صحيحة !
وإذ يثقل الألم علينا وطأة الأيام
نسأل صفاء الحياة وسكاسكها
قدرة المدهشة للوصول إلى النسيان والسلوان
فتلبي طلبنا إذ نلتجئ اليها !

ولكن رغم كل مغالبة وكل قهر
تنهض الوقت بعد الوقت من عمق أعماق الكيان
كما من أرض قصية مجهولة
أصوات ملتبسة
تنهض بائسة ،
وتنتشر أصداء طائفة تائهة
فتملأ أيامنا كآبة وغمًا !
إنما — وهذا نادر الحدوث —
عندما نضم في يدنا يدًا محبوبة
ونقرأ بعينين يعذبهما دفء الشفاه والأيدي
نقرأ جلاء في عيني شخص آخر ؛
وتداعب سمعنا الذي أصمّه ضجيج العالم
نبرات صوت عزيز —
اذ ذاك تنبسط الأنوار في أرجاء جناننا
وتهرب البقايا العالقة المفقودة من جديد
وتستقر لواحظنا في محاجرها ؛
وينفتح كتاب القلب فنعني ما نقول ،
ونقف على ما نود معرفته ،
ويرقب الواحد منا فيض حياته
ويسمع دمه الشيق ، ويلمس عودة المتشابهة ،
فيستمتع بالحقول اللامعة ، ويتمتع بالثمر والنسيم ،
وأخيرًا ، أخيرًا يداهم ذلك الفيض الحار
هدوء حبس فيه الخيال المراوغ المدعو بالراحة :
نسمة باردة تهب على وجهه ،
وشعور غير مرغوب فيه يهجع في صدره ؛
اذ ذاك تنغيلة عارفًا كأنما أشرفت عليها حياته
وبحر تشيّ اليه أعمار الأنهار !

الذكرى السادسة

في صباح الغد طُرق بابي باكرًا ودخل عليّ طبيب البلدة الذي كان صلاحه وعنايته صديق كل نفس فيها. شهد تعاقب جيلين اثنين من أهلها والأطفال الذين دخلوا العالم على يده، وصلوا إلى دور الأبوة والأمومة وما زال يعاملهم جميعًا معاملة الأب لأبنائه. لم يتزوج مع انه كان في شيخوخته لا يزال قويًا جميلًا. عرفته منذ عرفته كما يقف الآن امامي يتلوى جعدًا؛ وعيناه الزرقاوان الرائقتان تلمعان تحت حاجبيه، وشعره الابيض الكثيف متلويا

يلبس جوارب البيضاء وهذا الحذاء ذا العرى الفضية، وعلى ذراعه هذا الرداء البني الذي قضى عمره جديدًا. وعصاه ذات الرأس الذهبي هذه كان يحملها بعينها ايام طفولتي إذ يقف إلى جانب سريري ليجس نبضي ويصف لي الدواء. ولقد تعددت الامراض بي حداثتي إلا ان ايماني بقدرة هذا الرجل كان كفيلًا بالشفاء لأني لم اشك لحظة في كفاءته وسلطونه على جميع العلل. فكان قول والدتي بوجوب استدعاء الطبيب يعزى عندي قولها بوجوب حضور الخياط ليفصل لي قميصًا وبدلة. وما كان عليّ إلا ان اتناول أول جرعة من الدواء لاشعر ببدء الشفاء والتحسن

دخل الغرفة قائلًا: كيف حالك يا صديقي الصغير؟ أرى دلائل التعب على

وجهك فلا تندد من الدرس . ليس لدي وقت طويل للحديث . إنما جئت اقول لك ان تكف عن زيارة الكونتس ماري . لقد صرفت الليل قرب سريرها وانت علة اضطرابي . فامتنع عن زيارتك إذا كانت حقيقة عزيزة عليك . ستذهب الى البرية قريبا ~~[illegible]~~ وخير لك ان ~~[illegible]~~ تقيم انت أيضا وتتغيب مدة . والآن عم صباحا وكن ابدا ولدا عاقلا كما ~~[illegible]~~ هو عهدي بك "

قال هذه الكلمات وتناول يدي ناظرا في عيني ~~[illegible]~~ بعطف مستفهما كمن يود سلب الوعد سلبا . ثم غادرني لعهود الأطفال المرض

أود لو يهتدي غريب على أسرار نفسي فيدرك قبل ان اكون على علم تام بها . غير اني لم أدرك في هذا إلا عند ما بلغ الطيب اطراف الثلج ؛ فجاش قلبي كالماء الحار ملقى على النار فتغلي جمأة وتثور وتفور وتعلو حتى يضيق عليها الاناء فتندفق

كيف لا اراها بعد الآن وأنا لا احيا إلا حيث تكون قربها ؟ كيف تكون هادئا لا اتحرك وحائرا لا اتكلم ، بل اكتفي بالوقوف عند النافذة وانظر اليها وهي نائمة تحلم . كيف لا اراها ؟ وكيف يمكنني ان لا اراها ؟ بل كيف لا أود ها ؟ هي لا تعلم - ولا تستطيع ان تعلم اني أحبها . وأنا لا اتكلم شيئا ولا أطمع في شيء ، وقلبي ينبض بانتظام في حضرتها . إنما احتاج الى الشعور بوجودها ، احتاج الى استنشاق روحها ، وعلي ان أزورها لأنها تنتظرني . ترى أيجمعنا القدر بلا مآرب ؟ ألست انا عزيزة عليها ؟ وليست انا موضع رضاها ؟ أتكون الحياة

لتدفني بين روحين ~~[illegible]~~ شئت بذرت الرمل في الهواء ثم تبعث بريح سموم فتلاعب بضفوك وتذرها في الهواء غباراً ؟ أليس ان نفوتك سعدت بالتقاب ~~[illegible]~~ والتفاهم تحافظ على سعادتك ، ولا تفضل بذلك قوة ولا ترفت في الدفاع والنضال وقضت في سبيل ذلك الاتصال ؟ وقد تحتوني الفتاة إن انا جازفت بحبك وأجفلت لأول اشارة إجفال تلك الشجرة عند دوي الرعد في الفضاء

توقفت بغتة واذا بكلمة "حبك" تتراجع كالاصداء في جميع أنحاء قلبي خفيفة مروعة. "حبك" ؟ وماذا فعلت لأستحقه ؟ هي لا تعرفني إلا قليلاً ؛ واذا استطاعت ان تحبني فعلى ما أعرفها بأني ~~[illegible]~~ لست أهلاً لتلك النعمة . وأخذت أفكاري وآمالي تتصاعد في جو نفسي ثم تهبط يائسة كأطيار تحاول التحليق في بعيد السماء ، وهي تجهل أي الأسلاك ضربت حولها سياجاً محكماً . إن لم تكن هذه السعادة التي تحلم على مقربة مني ؟ ألا يضع الله العجائب ؟ ألا يضعك كل يوم وكل ~~[illegible]~~ ؟ ألم يضع لصلواتي مراراً أرسلتك نحو علاه فعادت إلي تحمل مني عدة للمكاسب وتعزية للمضى ؟ أنا وهي لا ننشد غيداً دنيوياً ، الا ان نفسينا المتفاهمتين تودان ان تعبرا هذه الحياة يداً بيد ، ووجهاً لوجه — وان اكون أنا عضدها في الامم وان تكون هي تعزيتي ، أو حملي الغالي وهكذا إلى نهاية العمر . ولماذا لا يمد الله بعمرها وينعم علي من أيامي بربيع بعد أوان الربيع ويبرئ سقامك ؟ — آه ! بالاصوات العذبة تمر أمام عيني ! هي تملك

قطر والذكاء في «البترول» . هناك نمت فوق الاكام الخضراء في هواء الجبال النقي ، بين أصحاء لم تضعفهم المدنية ، بعيداً عن هموم العالم وجهوده ، حيث لا حاسد ولا عذول ؛ هناك ندرك بسلام غروب الحياة فنذوب اياسنا الاخيرة رويداً رويداً كاحمرار الشفق لدى هجوم الظلام ...

تراءت لي البحيرة القاتمة بأمواجها الهادئة ترجع صدى الجبال البعيدة يجلل الثلج أعاليها . وسمعت رنين اجراس القطيع واغاني الرعاة ، وخلت الشيوخ والشبان متجمعين عند الماء في مدخل القرية — وفوق هؤلاء جميعاً تحت خيال الفتاة تلوح كملاك حب وسلام ؛ وانا معك دليلاً لا وحيداً

عندئذ صرخت بأعلى صوتي ، «يا لك من غبي ، يا لك من غبي ! أخارت قواك من الحب والخمر والغرور ؟ الا تنتبه وانهض ، واذكر وصول شمسك ، وبلغت هذا المبلغ من العمر ! هي حالة لطيفة تسر برؤية نفسك منعكسة في مرآة نفس أخرى . على ان تنتبه هذه البحيرة بنقاء الاطفال ، وكيف تعرف معك ومعاملتك ، كلا تنم عن خلو فؤادها من عاطفة عميقة تحييك . ألم ترَ في ليالي الصيف المنيرة وانت تائه وحدك بين اهاج الزان كيف البدر يفيض أشعته على كل غصن وكل ورقة ، ويضيء بركة الاسماك ذات المياه القاتمة فيشرق مثلاً في كل قطرة وجزء من قطرة ؟ ذاك موقف ازاء ليل هذه الحياة ؛ وان نشأت في فؤادك نوراً ترتسم خلاله خطوط صورة الاطيفة فلا ترجع شعاعاً ، لا ترجع شعاعاً حاراً لاذعاً ! لا ترجع عاطفة حارة تبعث وتحيك !

ليس

تلك صورة أمامي تمثل الحياة، لا كذكرى بل كرؤيا، فأستوقفني جمالها.
ذلك لم يكن جمال الرونق الزاهي الذي تفتننا به الفتاة الحسناء لأول نظرة، ثم ينقضي
ويزول بزوال الربيع. بل كان جمال الانسجام والانتظام بين أجزاء كيانها،
وجمال الحركة الحاذقة والتعبير الروحي، ومعنى السكون المفهم. إن جمال الشكل واللون
الذي تمنحه الطبيعة بنات حواء لا يرضي إلا إذا أظهرت حاجبته أهلية له، بل وتغلبا عليه.
والآن فيضرب ويخط كأنه رداء ملوكي تجره في المرسح ممثلة ذات فن خامل
فهو سقيم. الجمال الروحي هو الجمال الوحيد يمد الصور الذابلة الجامدة بالحياة والمعنى
ويهب المنفر جذابا والقبيح مليحا

كلما امعنت النظر في طيف الحبيبة أدركت مبلغ جهلي بسبل الجمال وعمق الروح كأن
الوحي بذلك الجمال يهبط علي بالتدريج. أواه الى لحظة، الى لحظة تلمسها يدي!
وما غاية الزمن من تعذيبي؟ أيريني قمة الرجاء ثم يلقي بي غدرا في القفار حيث الضلال
المحرقة والوحدة الموجعة؟ ما الغاية من الكشف عن ثغور تحوي أرضا هذه؟ أليس دوام
الشقاء خيرا من ان يحب المرء مرة ثم يبقى الى الابد وحيدا، ويرجو يوما ليستحق اليأس
قلبه دواما، وليمنح النور ضفة ليضع حياته في الظلمات كفنا؟ هذا ألم يفوق الآلام
البشرية مجموعة بتمامها

طال تشتت افكاري وتناقضي المشوش المختل، الى ان هدأت عاصفة شعوري
وتجمعت خواطري وانتظمت قليلا قليلا. ليسمي الناس هذا الخمود تفكيرا ولكن التفكير

في مثل ذلك محال وما لدينا من قوة سوى الترقب والانتظار . وما هي النتيجة ؟
هي تلك التي يشهدها الكيماوي المتيقظ بعد ان تأخذ العناصر اشكالها ~~الحالية~~
فيذهله ان نتائج التحليل تختلف عن مقدماته كل الاختلاف كله .
وكانت الكلمة التي لفظها بعد العودة من غيبوبتي هي هذه " يجب ان أسافر "
فجلست الى مكتبي وكتبت الى الرهيب اني سأغيب اسبوعين وانا اترك الأمر
له . ثم انحلت عذراً قدمته لأبوي وغادرت البلدة في ذلك المساء ووجهتي
جبال " البترول "

الذكرى السابعة

ما أسعده فتى ذاك الذي جال في انحاء البديل فتسلق جبال هضبة وهبط أوديتها العميقة برفقة صديق أو محبوب ! الإنسان حظّ لهذا يبعث فيه نشاطاً وطيلة هذه العمر ؛ وما أشقى ذاك الذي يجدب البراري والقفار والغابات والمدن وحدهُ لا نديم له سوى أفكاره المؤلمة

ترى ماذا يرجى من هاتيك الجبال التجلية بحلل الخضراء ومن هذه الوهاد السوداء الغائرة ، وتلك البحيرات الزرقاء ، والسلاسل المتدفقة تتكسر فيها خطوط الأنوار والظلمات ؟ عوضاً عن ان انظر اليها هاهي تنظر إليّ وبها ذهول لذلك البأس المرسوم على الوجه البشري المسائل تسامرني ؛ وذهولها يسحق قلبي ويثقل عليّ انفرادي إذ ليس في هذا العالم الواسع شخص يشتاق إليّ ، ويرغب فيّ ، ويؤثرني على أيّ أحدٍ غيري . كنت أرقد كل مساء ، وأستيقظ كل صباح بهذا الهاجس المبرح كأنما هو نغمة نقدت في سمعي وظلت ذاكرتي دون الملل في الجلاء

دخلت ذات مساء احد الفنادق تعب النفس والجسد وجلست بين الحضور فتهدجت إليّ انظارهم ورأيت فيها خيال الشفقة على هذا الغريب النائه في ديارهم . فأمضني جراح قلبي ومضيت أسعى تحت جنح الظلام حيث لا عين ترى ولا شفيق يشفق . وعدت والى غرفتي

في أدأج الليل وانطرحت على مضجعي الملتهب أهمهما لنفسي بأغنية شوبرت المعروفة «حيث لست موجوداً هناك السلام والطمأنينة». ومرت الايام وحالي في ازدياد حتى أمسيت لا أحتمل منظر المغبوطين الضاحكين وفي هذه الطبيعة البديعة الدامة، فصرت أنام ساعات النهار طولاً وأسرف الليالي متجولاً من مكان إلى مكان. إلا ان عاطفة قوية كانت تستولي عليّ فتحول افكاري عن مجراها وتردني إلى نحدي، وهي عاطفة الخوف أو احساس الخوف بسمة ما.

نعم كنت أخاف في تلك الليالي القمراء إذ أتسلق التلال الصاعدة في أدغال ليس بمعروف مداها ولا منتهاها بمأمون؛ فتتوتر أعصابي وتتيقظ حواسي ويرهف سمعي فأرى اشباحاً بعيدة مبهمة، وأتوجس اصواتاً ذات همس ودوي وطنين جميعاً تنبعث من كل صوب، وتنتشر قدامي في جذور الشقوق التي انشقت من الصخور. هذا إن لم تزلق قدمي في عطفة بلت تراكي مياه السيل فتكمن في فؤادي الفاظ وتزهره قشعريرة البرد وليس لديه من وازع التذكار ما يدفئه ومن حلو الرجية ما يتعلل به. إن من اخذه مرة في جوف الليل لعالم بأن يتناول النفس والجسد معاً

لا أشك ان الخوف كان أول عذاب الانسان يوم ظن نفسه منفياً من الله. ثم تشدد وهف اضطرابه بتعاون ابناء الله فيما بينهم

والتفاق كلهم على التكاتف والتضامن . وهو لا يعرف الوحدة الحقة واليأس الصحيح إلا عندما يعوزه الحب والمعونة فيتمثل له انه إنما انقطع عن شركة الأحياء لأن الله هجره وأغفل وجوده . يتأمل الطبيعة وعجائبها فيلقى من شكواه هولاً لا مؤاساة ؛ وينقل خطواته على الارض المتينة الصلبة فتترنح تحت وطئه وتتوارى كزبد البحر وموجه . وان رفع نظره نحو النور نثرة القمر صاعداً وراء أواخر السربين حتى أشعة رؤوس حواب تطعن بهج الصخور ، وخيوطه الخافق الذي تطلب الانتقام غارب ساعة دارت دورها زمناً ووقفت وقوفاً لا يتبرى

النجوم تدور مترعة في أبراجها السحيقة لا تلتفت لنقاء الغبراء فلا تعزية في مرآها بل هو يزيد النفس شعوراً بالوحدة والهجران . وما من سلوى ممكنة في غير عمل الطبيعة المستطرد بدقة يشمل الموجودات بأسرها لا تشوش يزعج ذلك النظام الكامل العظيم

هناك السلسال ، يا أيها المتأمل ! فان تذوقت أمواهه أنال الجلاميد على جانبيه حياة وكأنها بطحلب ذي خضرة قاتمة ، وفي ظل الجلاميد تختبئ تلك الزهرات الزرقاء النحيفة المدعوة « لا تنسني ! » . هذه واحدة من ملايين الزهرات المنورات قرب كل ساقية وكل جدول في كل روض من رياض الأرض . وقد تورن

في أماكن مرات عديدة منذ ان نزل الكون على الخليقة ثروة حيويته التي لا تفاد

لا . ~~كل خط في ورقات هذه الزهرة على~~ ~~وكل ذرة في كأس~~ ~~متعددة وجميع~~

~~الياف جذرها مضبوطة~~ أحصيت جميع الخطوط في ورقات هذه الزهرة ، وعدت

جميع الذرات في كأسها ، وضبطت جميع ألياف جذرها فليس من قوة أرضية

مهما طغت وبطشت ان تزيد عليها أو تنقص منها قتيلاً . وإذا استعنا بالمجهر

(المكبر ستوب) لتبين عمل الطبيعة وأكتشاف خفاياها في أدق انواع انتاجها

وجدنا في احشاء البذور البادئة ، وفي البراعم والازهار والانسجة والخلايا ، الناموس

ذاته متكررا متجددا ، ويظل نظام الكون في أصغر الذرات وأنحف الألياف

أبديا لا يلحقه تغير ولا يلحق به تبديل . أنى توجهنا لقينا النظام الأوحد ؛

فالنفس من هذا العالم الصغري عين ~~الحكمة~~ أحاطت في المرايا فقدت ذاتها

في تكرار لا حد له ولا غاية . وفي كل كائن وكل موجود يستقر الأبد

الأبد الذي يختلب ذهنك إزاء هذه الزهرة النحيفة .

وهناك في أعالي الفلك نجد النظام بعينه نافذا في الاجرام الكبرى ؛

فالاقمار تدور حول السيارات ، والسيارات حول الشموس ، والشموس حول شموس أقوى

وما القديم الخيالي الشجيح إلا عالم عجائب وقدرة وجمال . ولا تفنأ هذه الكواكب

الفطيمة تدور في أبراجها تتظفر الأرض بتوالي الفصول فتتكمن الزهرة من النمو والبروز، وتنسج من الخلايا وتنشر الأوراق فترضع هي وأخواتها بسط الحقول. كذلك ينفذ النظام في الوشيجة المتوسدة أحضان الأزهار. فإن يقظتك للوجود، وتمددك بالحياة، وكيفية تنفسك ونموها لأعجب من نسيج النبات ودورة الشموس. ونحن البشر نظير كل كائن إنما يختص بنا النظام الكلي الخالد. فكم من موجود انتبه من غفلة العدم وتحرك وتحس ثم اختفى غير تارك لمروره من أثر!

فإذا كان الكل بموجوداته الكبيرة والصغيرة وما يدبر هان حكمة وقدرة، إذا كان هذا الكل بأعجوبة حياته وحياة أعاجيبه صنع كائن أحد فلماذا أنت ترتعد ولماذا تخشى؟ أليس الأحرى بك أن تخر جداً مدركاً ضعف نفسك وعدمك ثم ان ترفع عينيك نحوه وتلقاه بحبه وعطفه؟ أليس ان فيك شيئاً أثمن من نسيج الأزهار وأعضاء الفراشات وأبراج السيارات؟ إذا كان ذلك ورأيت حياتك في صفحة الوجود محالفاً بتألق الكائن الدائم وشدت بحضوره فوقك وتحتك وفي داخلك، وإنما بذلك الحضور الإلهي يصبح الشبح منك إنساناً، والقلق عندك راحة، والانقطاع اشتراكاً، والانفراد وحدة كبرى؛ إذا كان ذلك وعرفت

أنك مناجيه إذ تطرح في ليل الحياة البهيم "أبتي، فلتكن مشيئتك كما في السما، كذلك على الأرض وكذلك في"! فكيف لا تنقشع عنك غيوم الأكدار وينبغ فجر السرور حاملاً معه تعزية ونوراً؟ ان كنت من الله بدا لا تهملك بل تظل تعضدك وتقودك عند ما تهتز الرئيسيات وتنطفئ الشموس. حينما حللت تكن معه وكن معك وهو قريب اليك على الدوام. له الخليقة بورودها وأشواكها، وله الانسان بأزاهره وأتراحه "ولا يحدث شئ إلا بارادة الله وسماحه"

بمثل هذه الخواطر كنت أسلي نفسي فأتقبل تارة فرحاً وطوراً حزيناً. لأنه بلحظة ان نحن بلغنا مقر الراحة والسلام القائم في غور الروح فيتعذر علينا المكث هناك طويلاً؛ وكم من نيل تلك الخلوة بعد الاهتداء إليها، وينسى حتى السبيل الفكري الممتد بين العالم وبيني

انقضت الأيام بسرعة ولم أتلق من فتاتي حرفاً. فكررت هجمة جديدة إذ قلت لنفسي "ربما توفيت وهي تستريح الآن في حضن السلام الأبدي" فأقامت هذه الكلمات الحوم حول شفتي وحلما بالغت في ازدهارها بالغت هي في اثبات مضاها

فعلام الازدهار وقد يكون حتف المقدور؟ ألم يقل الطبيب الأخصائي القلب وانه يتوقع ان تفارق الحياة من يوم إلى يوم؟ فهل أعنف نفسي لذلك إذا غادرت صديقتي الدنيا دون ان أودعها وأتبعها لمجثي ولو في الساعة الأخيرة؟ ألا يتحتم علي

البحث عنها الآن لأستمع منك كلمات الحب والغفران ؟ لماذا يتردد الناس في قضاء الشؤون ويؤجلون مخيرين غبطة تتيسر في الحال ناسين ان كل دقيقة قد تكون الأخيرة وان ما فقد من الزمن فقد فقد من الأبدية ؟

فكرت في اجتماعي والطبيب قبيل السفر فأدركت اني لم أرحل إلا لأثبت له اني قوي صلب الارادة وقد عز علي الاعتراف بضعفي وباحتياجي اليه . فاصبح لي الواجب في الحال وهو العودة اليه على الاستعداد لقبول ما تبعث به إلينا السماء من روح وروح . وذكرت قول الطبيب بقرب ذهابه الى البرية وقولي في قبلته الأخيرة اعتادت الاصطياف في قصرها في البترول . أتكون إذن على مقربة مني لا يفصل بيننا سوى سفرات قلائل ؟ ما كاد يبرز الفد حتى عاجلته بالتنفيذ : فقمت عند انبثاق الفجر ووجدني الغروب أمام قصرها

وكان الليل هادئاً جميلاً وقد ضرب بجد الغروب فوق قمم الجبال رواقاً عنبرياً فسبحت الاهداب في زرقة وردية ، وتصاعد من الأودية ضباب رمادي فجعل يستحيل لامعاً بملامسة الهواء المنير ، ثم اتجه نحو أعالي الجو كبخار متحرك . وتقدد تلك الألوان والأعيب هاتيك الأنوار كان ينعكس على صفحة البحيرة المضطربة المياه فتبدو فيها قمم الجبال مرقصة رؤوس الأشجار واشدارة سطح الكنيسة ، وكان تلك الرسوم في الماء كانت هي بعينها الحد الفاصل بين عالمي الحس والخيال

استقرت عيناي على القصر القديم حيث أرجو الاجتماع بي ، ولم يكن في النوافذ نور ولا حول الجدران صوت يقلق سكون المساء ؛ ان قلبي ليحدثني بلقياها أكيدني اليوم قلبي ويخونني الرجاء؟ مشيت متمهلاً فاجتزت الباب الخارجي ووجدتني في ساحة القصر حيث يمير الجندي الحارس ذهاباً وإياباً . بادرته بالسؤال عن الكونتس فأجاب انها في القصر . فقرعت جرس الدخول وانتظرت؛ وفي تلك اللحظة دهشت لما أنا فاعل. قد لا يكون بين الخدم من يعرفني ، ولا أجرأ على ذكر اسمي لأني قضيت الأسابيع المنصرمة تائهاً في الجبال وقد أهملت امر لباسي وهندامي متى صرت أشبه بالمتسولين . فماذا أقول وعمن أسأل ؟ لم أحبس طويلاً لأن الباب فتح فظهرت البواب في زي خدم الامراء وحدق في مبهوتاً

سألت عن السيدة الانجليزية وصيغة الكونتس فقال انها هناك . فطلبت قرطاساً وقلماً وكتبت اليها اني قدمت للاستعلام عن صحة الكونتس فبقيت البواب بالرسالة مع خادم سمعت وقع خطواته المتباعدة في أبهاء القصر وممراته ، وما تلاشت تلك الخطوات حتى صار موقفي لا يحتمل . فأخذت أنظر إلى ما علق على الجدران من صور افراد الاسرة الراحلين : فرأيت تدجج بالسلاح ، وسيدات يرتدين الزي القديم ، وفي وسطهن صورة راهبة بثوب

ناصع البياض وعلى صدرها صليب أحمر . لقد رأيت هذه الصور قبل اليوم في أحوال مختلفة ولم أفكر قط ان قلوبًا خفقت في هذه الصدور . وها ان ملامح هذه الوجوه تظهر اليوم كتبًا ملأى بالمعاني وكأنها تقول جميعًا ، لقد عشنا نحن أيضًا وتألمنا مثلك" . فهم نعم تحت هذه الأسلحة الماضية دفنت أسرار كالتي تفطر الآن حشاشتي ؟ وفي صدر الراهبة ذات الثوب الأبيض والصليب الأحمر جاشت العواطف المتلاطمة الآن في صدري . خيل إليّ ان العيون تطل عليّ من الرسوم مشفقة . ثم اختفت الشفقة وحل الكبرياء مكانها وقالت الصور وأهلًا ، أنت لست منا !" وكانت ثمة الدقائق فيتمم وجلي . وإلا ان سمعت وقع أقدام خفيفة يقترب

وإذا بالسيدة الانجليزية تشير إليّ بدخول احدى الغرف . فنظرت اليها مستفسرًا لأقف على ما توقف عليه ما جرى . ولكن ملامحها بقيت هادئة لا يبدو عليها دهشة أو تعجب أو أي اهتمام خاص . وقالت بصوت مرتجف ان صحة الكونتس في تحسن وانها ستقابلني بعد نصف ساعة

مثلما يأتي الغريق النجاة بعد يأس الموت إذ يرى نفسه آمنًا على الشاطئ عقب ان تقاذفته اللجج — كذلك كان وقع هذه الكلمات في قلبي . هانذا أدنو من حقيقة جديدة وما آلامي الماضية سوى أضغاث أحلام . قليلة هي اللحظات

لمحات الفجأة المتناهية — في حياة الإنسان والوف الوف من البشر لا يتذوقون
هناءها. فالام التي تناغي رضيعها لأول مرة، والوالد الذي يلاقي وحيده عائداً
من الحرب وقد انقلت جبهة أكاليل المجد والنصر، والشاعر الذي تقذف
له أمته بالعبقرية وتحييه بالهتاف والثناء، والشاب الذي يشعر بأن
يد فتاة تسيل حباً في يده — أولئك وحدهم يدركون لذة الاحلام إذا هي
انقلبت حقائق

مضى الوقت المعين فجاد الخادم وسار بي خلال غرف كثيرة ثم فتح
باباً فلمحت في نور الشفق الضئيل شبحاً أبيض أمام نافذة عالية أطلت
على البحيرة والجبال المتلظية الصامتة

— «ما اعجب تلاقي البشر بعد الفراق الطويل!» سمعت صدى الغضب يلفظ هذه
الكلمات فكانت كالثلج بردا على قلبي وسلاما

رددت كلماتي قائلا «ما اعجب التلاقي وما أعجب الفراق!» وامسكت
بيدها فأدركت اننا معا وعلى مقربة الواحد من الآخر

فقالت «إذا هم افترقوا فما الذنب إلا ذنبهم». قالت ذلك وصدى الهتاف المنبعث
البريء عادة كموسيقى سماوية يتهدج قليلا

فأجبت «صحيح. ولكن قولي لي أولا كيف أنت؟ هل تستطيع التكلم؟»

فقالت باسمة " يا صديقي العزيز ، انت تعلم ان صحتي غير جيدة ؛ فاذا زعمت منذ سنة فعلت حبًا بطبيبي الذي أنا مدينة لعلمه وعطفه بحياتي منذ حادثة القطر . وقد وقعت كرة قلبي في احدى الليالي قبل مغادرتي المدينة فعانيت ألمًا شديدًا وحسبت تلك الكرة واقعة دوائما . فراعه ذلك . ولكنه أمر مضى فلماذا تذكره ؟ شيء واحد يؤلمني : كنت أرجو ان الموت يعانقني بلا وجع والآن أعلم ان الأوجاع ستعذبني ساعة الرحيل وتفعم حياتك المرة " . ثم وضعت يدها على قلبها ، وتابعت " ولكن قل لي اين هذه الغيبة الطويلة ؟ ولماذا قطعت عني أخبارك ؟ لقد أورد لي الطبيب جملة اسباب لسقوطك الفجائي فحارت القول اني لا أصدقه في واحد منها . فذكر لي أحدًا سببًا هو أدنى تلك الأسباب إلى الغرابة . أتعلم ما هو ؟ "

فقاطعتها خوفًا من ان اسمع كلمة تؤلمني قلت " قد يخال السبب وهميًا وهو ليس بوهمي . وهذا مضى أيضًا فلماذا تذكره ؟ "

قالت " لماذا مضى يا صديقي ؟ عندما ذكر السبب الأخير قلت له اني لا افهم ما تعنيان ؟ انا فتاة عليلة باتت وحياة جدي متوقفة بطبي ؛ وقد ارسلت إلى السماء صديقين يرتبان لحالي أو يحبانني - على زعم الدكتور -

فأي شيء في ذلك يخلف راحتي أو راحتها ؟ كنت أذاً قصائد شاعري المحبوب
ورددتها قبيل محادثة الطبيب فقلت له : يا طبيبي العزيز ان الافكار كثيرة متنوعة
والكلام المعبر عنه قليل ؛ فنزعم على تصوير ما نحس لا نقصد ولا نفهم الآخرون
ماذا نريد باستعمال كلمة واحدة فيقولون ما شاء الوهم والخيال . فلو سمع
من يجهلنا انني أحب صديقي الفتى وانه هو الآخر يحبني لخالنا شيئين بردميو
وجوليت ؛ ولو كان الأمر كذلك لوافقتك على وجوب ملاشاته . ولكن
أليس انك تحبني انت أيضاً يا طبيبي الشيخ كما أحبك ؟ ولقد احببتك أعواماً
طوالاً ولا أدري هل كنت أحبك قبل الآن . فما انا بيائسة ولا بشقية . وأقول
لك انك خصصتني بمودة شديدة وانك تفار من صديقي الفتى . ألا تأتيني كل صباح
متفقداً حالي وانت تعلم انه لم يجد شيئاً ؟ ألا تهديني أجمل أزهار حديقتك ؟
ألم تحملني على إهداء صورتي اليك ؟ وهناك امرأ اخر قد يحسن كتمانه
ألم تدخل علي يوم الأحد الماضي فجئت قربي وأنت تحسبني مستغرقة في
النوم ، وحدقت في طويلاً فكانت نظراتك كأشعة الشمس تلثم وجهي . ثم كبيت
وأخفيت وجهك براحتيك وقلت بصوت يقطعه الشهيق ، ماري ! ماري ! آه ،
يا طبيبي العزيز ! صديقنا الفتى لم يأت أمراً كهذا فلماذا أوصيته ؟ " قلت ذلك
عني

بلاغة جمعت بين الجد والمزاح كما اعتدت مخاطبته فتورد وجهه خجلاً وأشفت لإيلام عواطفه. ثم أخذت كتاب وردسورث وقلت «هذا رجل آخر أحبه بكل قلبي، أفهمه ويفهمني مع اني لم أره ولن اراه في حياتي. وأريد ان أطلعك على ما سمعك احدى قصائده لتعلم كيف يحب البشر ويحبون وان الحب بركة الهية ينزلها المحب على المحبوب فيجعل طريق حياته مفروشة بالورد والازهار». ثم قرأت له قصيدة «فتاة الجبال». والآن، يا صديقي الصغير، ادن السراج واتل لي هذه القصيدة ذات المعاني المشرقة. ان روح الجمال الخفية تلامسك كما يلامس احمرار الشفق رؤوس الجبال المكللة بالثلوج البيضاء»

كانت تتكلم فحاكت عواطفي هادئة رضية جميلة. انثنت العاصفة وانفلت طيف البنية كصفحة البدر على بحيرة هدبي - بل على بحر الحب الجميل الذي يدعيه كل لغة بينما هو ينتشر في كل مكان لأن منه حياة بني الانسان. الحب بحر الحياة الهادئ الثائر في كل قلب، المفرق بين القلوب والجامع بينها بعاطفة واحدة وولهٍ واحد. وددت ان الزم الصمت كالطبيعة المنبسطة لنا. غير ان الكونت دفع إليّ الكتاب فقرأت: —

فتاة الجبال

" يا فتاة الجبال العذبة ، جمالك هو غناك الوحيد : أربعة عشر ربيعًا
سكبت على جبهتك بهاءها فحسبك هي ثروة وجاهًا

" هذه الصخور الرمادية ، وتلك الأشجار الشريدة بستار الثلج عن نصف
وجه السماء ، وذيالك السلسال المهم في أذن البحيرة المنصتة ، وذيالك
الخليج الصغير ، وهذه الطريق الضيقة المؤدية إلى مسكنك - جميع هذه
تخال مصورة بخطوط الأحلام والأوهام . وأنا أباركك من أعماق قلبي ،
يا فتاة ، يبعث جمالك في هذا النور الأرضي نورًا سماويًا

" لكن الله عونك حتى اليوم الأخير ! أنا لا أعرفك ولا أعرف ذويك
على أن العبرات تجول في عيني . ستذكرك في صلواتي بخشوع بعد ذهابي
لأني لم أر حتى اليوم وجهًا كوجهك بدت فيه الرقة في حشمة ، واللطف في طهر تام

" عيني هنا بعيدًا عن البشر كبذرة قذفت في يد الصدف ، فلا ترخيني
أجفانك خجلًا ولا ترتدي ملاءتك احمرار الحياء . على جبهتك أشرقت عرية
أهل الجبال وصراحتهم ؛ وفي ابتسامتك بسم الجود والحنان ؛ وعطفك

يتدفق تدفق خواطرك المنعتقة من ذهنك رغم قيود جهلك والفاظك
الانجليزية القليلة . قيود تشدين بك وتجاهدين في التغلب عليها فتجيء آياتك
مفعمة بأن لها ولها معا . كذلك رأيت مرة أطيارا تصفق بأجنحتها
لمقاتلة العاصفة

" كل يد تقطف لك الأزهار ، أيتها الحسناء ؛ فيا سعد من عاش
وبك في وادٍ صغير كثيف الشجر كثير الزهر ، يلبس كلا بتك ويكون راعيا
للأغنام مثلك ! وهناك أمنية أفضل من هذه : ولكن ——
" انت موجة من البحر الآن في العجيب . ليت لي عليك بعض السلطة عليك
وليتني جدلتك من جدائلك لأتمتع بصوتك وأهنأ بمرآك ! بل ليتني أخوك
الأكبر أو ابوك أو أي واحد من أقاربك !
" واني لأحمد السماء التي قادتني إلى هذا المكان المنفرد حيث عرفت السرور .
ثم ذهب حاملا معي الجزاء لأن للذاكرة ميزة كأنها ميزة النظر . فلماذا أكره الابتعاد ؟
" إني أروح وأتألم في آنٍ واحد لفراقك ، يا فتاة الجبال الحلوة ! وسأحفظ
أبدا في ذاكرتي هذه المشاهد البهية حيثما أراها الآن - كوخك الحقير - والبحيرة -
والخليج - والتلال - لاسيما أنت الروح المحيية جسم هذا الجمال "

وكانت معاني القصيدة تهبط على روحي كقطرات الندى . وإذا بصوت العندب يتصاعد كنغمة الارغن تنبثق الصافي من تأملاته العميقة، فقالت :

"هكذا أريد ان تحبني ، وهكذا يحبني الطبيب ، وعلينا ان يحب بعضنا بعضاً هذا الحب وان يثق الواحد بالآخر هذه الثقة . وعلى قلة اختباري أكاد أظن ان العالم لا يفهم هذا الحب فجعل نبع الانسان هذه الارض صحراء يتخطفها القحط والكآبة . لا بد ان الحال كانت على غير ما هي في عهد غابر العصور وإلا لما حدثنا هوميروس عن نوزيكا ذات القلب الحساس . أحبت نوزيكا اوديسيوس للنظرة الأولى فأشرت إلى صويحباتها "هذا الغريب يا بنات ! وليته المقام بيننا يصيب له!" وكذلك فجلت ان تسير مع غريب لهُ هذا الجمال الباهر لئلا يقال انها بحثت عنهُ . فما أبسط هذه الحكاية وأدنى إلى الواقع ! وعندما قيل لها بوجوب رجوعه إلى زوجته وولده لم تتذمر ولم تشك بل امتثلت واختفت ، ونحن القراء نشعر انها حملت ابداً في فؤادها صورة ذلك الغريب الجميل القوي . لماذا يتجاهل شعراؤنا هذا الحب الصادق وهذا الوفاق الهادئ ؟ الى عهد قصير يخرج لنا من نوزيكا حبيبة لغرتر لان الحب لم يعد سوى مقدمة لمأساة الزواج . أهذا هو الحب دون سواه ؟ هل جفت ينابيع السعادة الطاهرة ؟ إلا يريد الناس ان يعرفوا من الحب غير الخمرة

المائدة ليضربوا صفحاً عن بؤسه العذب الذي في الظمأ ؟"

فاروق تعزيز كلامه واستشهد بقول الشاعر الانجليزي القائل : "ألا يحق لي ان أبكي لما فعل الانسان بالانسان ؟"

فقالت : "ما أسعد الشعراء ! كلماتهم تذوق العواطف الحرى ، في الوف القلوب وتنشد انا شيدهم لاظهار اسرار الجنان . فؤادهم يخفق في صدر الغني والفقير على السواء فيطرب معهم السعداء ويكبر النقاء لبكائهم . غير ان وردسورث أحبهم إليّ : من اصدقائي من ينفي عنه كل عربة . أما أنا فاحب منه اعراضه عن الاستعارات العادية ، وتجنبه الغلو والمبالغة وما يسمونه "الصورة الشعرية" . هو صادق وأي ميزة فوق هذه ؟ هو يفتح عيوننا على الجمال المنثور تحت اقدامنا كما تزهر الاقحوان في الرياض والمروج ، ويسمي الاشياء بأسمائها ، ولا يحاول إذهالنا وتفريزنا بل يرغب في إظهار الموجودات بزيها جمال الطبيعة قبل ان تشوهه يد الانسان . أليست قطرة الندى على الخس الأخضر أنم بكاءً وأوفى ثناءً من لؤلؤة ثمينة صيغت في قالب الذهب ؟ أو ليس النسيم المتدفق من صدر الارض أجل وأبدع من مياه قرباي الاصطناعية على الاطلاق ؟

أليست قصيدة "فتاة الجبال" ألطف وأصدق من "هيلانة" "جوتي" و"هايدي" بيرون ؟

اني آسفة لعدم وجود من يمائل وردسورث في طهارة الفكر وسذاجة التعبير بين شعرائنا . قد كان يكونه "شلر" لو استوحى خفايا نفسه بمثلما استوحى تاريخ اليونان والرومان ؛ كذلك "روكرت" قد كان يدانيه لولا انه آثر عيشة الرغد والرخاء بين ورود الشرق على شكنى وطننا العقير . قل الجري الراضي من البقراء نفسه المقدم على إظلاء رهابجدة من الزوائد : ووردسورث ذلك الشاعر . وكما نستمع برضى إلى اعاظم الرجال النوابغ حتى عندما لا يكونون أعاظم أملاً في مشاكلهم في الشعاع الساطع المنزل اليهم من شمس الالهية كما هي كذلك في افكارهم العادية الى لوذة - كذلك أحب وردسورث هنا نفسه حتى في القصائد التي لم تضمن قدرة مستحدثة . لا بد لكبار الشعراء من نوبة راحة يغب فيها الوحي والبيان انخلاب . فقد نقرأها عند هوميروس عثرات الابيات لا تزيدنا لمحة جمال ؛ وكذلك دانتي . بينا بندرس الذي يستفز اعجابكم جميعا يخيف احتمالي وينفد صبري بدوام ذهوله وافتنانه .

اني لأضحي أثمن مالدي لأتملى من الاصطياف على ضفاف البحيرات حيث يقيم وردسورث فازور معه الأمكنة التي أحب ووصف ، وأحيي الأشجار التي عناها من ضرب الفؤوس ، وأرقب قربه غياب الشمس الذي أبدع في تصويره بالألفاظ ابداع مصورنا ترنر في تمثيله بالألوان "

لم يكن صوتا ليربط بين الأصوات الأخرى في زاوية الخطاب بل كان يرتفع ويقف على نبرة استفهام: كأن الطفل القائل، أليس كذلك، يا أبي؟ كان ذلك الصوت يصعد نحو مخاطب بدلاً من ان يهوي عليه، تمارجه أنه توسّل تجعل مخالفته أمراً عسيراً.

فقلت، وردّدت عزيز علي، عزاً وعزيزٌ رجلاً. الأفكار في شدة. آكام صغيرة تتسلق بلا تعب بين سفوح عند غيره جبال باذخة محفوفة بالصعاب والأخطار. لم أكن أدرك له في البداية حين كان يدهشني ان يعجب بعض عقول انجلترا الحديثة هذا الإعجاب العظيم؟ ولكني اقتنعت بالتالي ان شعراً تنظر اليه امة نظرة الاكبار وتنزله من نفوسها تلك المكانة الجديرة بأن يدرس ويستقصى، ويتجاهل وجوده خسران للمتعاقل الاعجاب فن لا كتب بلا دراسة وتمرين: فمن الألمان من لا يذوق إسبن، ومن الانجليز من لا يفهم جوتي، ومن الفرنسيين من لا يرى في شكسبير إلا فلاحاً خشناً. وما مغزى ذلك؟ مغزاه ان لطفلاً غريراً يفضل موسيقى الرقص على ايقاعات (Symphonies) يتهوفن ذات الفخامة والجلال. فن الإعجاب الصميم قائم في اكتشاف اروع الشعوب والتعمق في دراسة كتب كبرها الأمم؛ ومن بحث عن الجمال عثر عليه. وعلم ان الشعوب لا تعجب من نوافل

إلا بمن كان حقيقاً بالإعجاب ، وان الوثنيين لم يكونوا يخدعون في حافظهم ، ولا الهنود في كاليداسا . لا يفهم الرجل العظيم من المجابهة الأولى ولا يوصلنا إلى اكتشافه غير المثابرة والتعب والعمل . ومن الغريب ان ما يرضينا لأول نظرة لا يطول الشيء نناله "

فقالت ، ولكن هناك سراً يشترك في كتمانه واذاعته جميع الشعراء وجميع الفنانين وجميع أبطال العالم سواء أكانوا زنوجاً أو هنوداً أو رومان أو المان وأكاد لا أدري كيفية وصفه : هو فكرة الأزلية المبتهجة أمامهم وراءها نحن خلال كلامهم وآثارهم . هم يقرأون ما لا نقرأ في كتاب الأبدية ويؤلهون الأشياء التي نزعم صغيرة زائلة . أما سمعت غوتي ذلك الوثني الصميم منشداً يؤله السلام النازل من السماء ، حيث يقول :

" انشر السلام على الهضاب ؛
وبين رؤوس الأشجار الباسقات
لا أثر لهبوب النسيم ،
والطير نائمة في الغاب
فانتظر قليلاً ، عما قريب
ترتاح أنت كذلك "

عندما نسمع أو نقرأ هذا الا نرى أشجار الصنوبر ووراءها المائدة الفيحاء

انتشرت فيه راحة لا تستطيع الارض ان تنيلنا اياها ؟ فكرة اللانهاية اتجدها ابدا
في قصائد وردزورث ، وذلك السر الكامن وراء الالفاظ والاسجاع والاوزان هو هو الذي
يحرك القلب دون غيره . من ذا الذي فهم الجمال الارضي اكثر من ميكلانجلو الطليانيّ ؟ ولسنه
فهمه لانه علم انه انعكاس الجمال السماوي . الا تذكر موشحه للحبيبة فيتوريا
كولونا : —

قوة الوجه الجميل تدفعني نحو السماء
ولا ارتاح على الارض ولي وجه سواه ؛
وبه احيا متعاليا بين [redacted] الارواح المصطفاة
وهي موهبة قلّ ان يتمتع بها الانسان الفاني "

—

"ومع المبدع الذي ابدع صفحي ،
وبنعمته وبمعونته ارفع اليه [redacted] خواطري
واوقع على انسجام ضميره افكاري واعمالي
لاحبّ بحرارة امرأة مليحة "

—

وان ضعفت دون تحويل نظري
عن عينيك الجميلتين المتألقتين

بنور يدلني إلى سبيل الله ؛

ان خفت وأوقفني لهيبها علمت المأجحة في قلبي

ان تلك النار النبيلة إنما هي انعكاس الشعاع الذي في

الرطم أبداً في ديار المجد والخلود "

بدت عليه آثار التعب فأجمت عن الكلام فاقتدت سكوته . ان قلوب الناس تميل إلى الصمت بعد تبادل الافكار القيمة ويخيل ان الملائكة ترفرف فوق رؤوسهم . فهم خيل إليها ان افئدة ملائكة الحب والسلام تخيم في تلك الغرفة . نظرت اليه فبدت بشدة الابيض كالرؤيا تتجلى في الشفق العابس واغاديدها المستلمة في يدي اثبت لي حضورها الحسي . وأرسل الغروب المودع على محياها شعاعاً باهتاً ففتحت عيني وحدقت في مدعوسة مستغرقة . فطمع نور عيني العجيبتين كبرق خاطف بين اجفاني الوطفاء . واذا بالبدر طاعداً بين الجبلين المقابلين يسكب ماءه على القرية الصغيرة والبحيرة الهادئة . لم أر حياتي مساءً أبهى من ذلك المساء ووجهاً أجمل من ذلك الوجه — وجه الحبيبة كما كان في تلك الساعة . فثرت بموجة حب رطفت على قلبي فقلت تملاً " ماري ! دعيني أعترف لك بحبي وأنا بهذا الفتون . ألا تشعرين مع بغرينا الآن من السماء ؟ ألا فلتتحد نفوسنا بقوة لا تسطو عليها قوة ! دعيني أفضي اليك بحبي . اني احبك

يا ماري كائناً أحب ما كان ؛ واشد بأنك لي لأني لك "

جثوت قربه ولم أجرأ على النظر إلى عينيه . فسحبت يدها من يدي متمهلة مترددة في البدء وبالتالي مرتعدة مصممة . فرفعت طرفي إلى وجهها فرأيت عليه امارات الألم . وبعد سكوت طويل تململت وزفرت زفرة عميقة وقالت ، كفى ؛ لقد آلمتني على ان الذنب ذنبي والتبعة عليّ . اقفل النافذة لأني أحس ببرد قارس كأن يداً غريبة تلمسني . ابقَ هنا - لكن لا ؛ اذهب . وداعاً ؛ ونم نوماً هادئاً وابتهل إلى الله ان يشملنا برعايته . سنجتمع مساء غد ، أليس كذلك ؟ "

أواه ، اين ذهب الهناء وكيف ولّت الطمأنينة ؟ فوجمت من الدهشة وبقيت بالبيدة الانجليزية إليها وجمت في الظلام . مكثت طويلاً على شط البحيرة وعيناي ترقبان نافذة الغرفة التي ضمتني واياها منذ حين . أخيراً خبت جميع أنوار القصر وتوسط القمر كبد السماء وسقطت أشعته عامودياً على الأرض فبدت خطوط الشرفات والجدران من ذلك القصر كأنها منارة بنور سحري . وبقيت وحدي في الليل الأدهم : أفكاري موجعة ، وقلبي سقيم ، ونفسي منوذة لا يجدي ولا يريدها في العالم أحد . شمت الارض نفحٌ والسماء كفناً يدور حولي ولم أدر أحي أنا أم ميت قضى منذ زمن بعيد

وإذ طلت النظر إلى النجوم ذات المقل اللامعات ، وجمّ تتمتم دوزكي باسطام
حسبك منثورة في الفضاء لتنير القلوب المظلمة وتعزي النفوس الآلية . اذ ذاك
قلت في نجمين سماويين أشرقا من عينيّ الكونتس ماري على أفقي الحالك السواد
وسجدت في فؤادي عاطفة الشك والحنان لفتاة العذبة وملكي الحارس الأمين

الذكرى الأخيرة

كانت الشمس مشرقة على رؤوس الجبال وقد دخلت أشعتها من النافذة ساعة استيقظت من رقادي. أهي الشمس التي شيّعت غيابها البارحة بنظرات الرجاء والغرام عندما انبسط قوام كيد صديق يبارك اتحاد قلبينا، ثم هبطت وتوارت كمضمحل الآمال؟ ها هي الآن مشرقة - تأتي إليّ كطفل يهنئني بعيد ميلادي. لقد عادت إليّ حيويتي المعتادة وتنبهت فيّ الثقة بالله وبنفسي؛ ترى أأنا هو ذاك الفتى الذي ارتاح على الوائل منذ سنوات قلائل مضنى الجسد خائر الروح؟

ما حالنا لولا سنة الكرى؟ نحن نجهل إلى أيّ العوالم يمضي بنا هذا الرسول الليلي حينما نستسلم له عيون مغمضة وليس من يتكفل بفتحها في الغد ليعيدنا إلى يقظة العمر. لقد تعلّق الآن بأهداب الشجاعة والإيمان يوم تلقاه الصديق المجهول فنوّمه النومة الأولى؛ ولولا ما فطرنا عليه من ثقة واتكال لأبى الواحد منّا، رغم التعب والنصب، أن يغمض عينيه بمحض إرادته ويدخل مملكة النوم. إنما الخوف والشقاء تشتد علينا وطأتهما فنلجأ إلى

قوة عليا ونرضخ للنظام البديع النافذ في جميع الكائنات ؛ فنصعد ايان
الرقاد بحلّ الروابط التي تقيد ذاتنا الأبدية الخالدة بذاتنا الأرضية الزائلة
كل ما جرى بالأمس وكان في ذهني سبهرا كضباب الماء ، أصبح الساعة جليا.
شدت بتقاربنا الواحد من الآخر كأننا أخ وأخت ، أو أب وابن ، أو خاطب
وعروسه — وأننا لا يحول بيننا انفصال . بحثت عن معنى ما يدعوه البشر حبا"
ووددت ، كما يعرّ ، ان اكون أخاها أو أباها او اي قريب لها . ودت
ان اهتدي إلى اسم يعرفني الناس به عندها لأن العالم ينكر من لم يحمل اسما وكنية .
هي قالت انها تحبني حبا طاهرا يكنه قلبها للنوع الانساني بأسره وهو
مورد كل صنوف الحب . فيما اذا خافت وتألمت لسماع اعترافي ؟
وهذا الألم وذاك الخوف اتفقا في الباحة هما اليوم في عينيّ
حجة راسخة على عاطفة تخصني بها . لماذا نحن نسعى في تفهم نفوس
الآخرين ونفوسنا مغلقة على بحثنا ؟ ولماذا يتأثرنا ما لا نحن نميزه في
الطبيعة والأفراد والقلوب ؟ أما الأشخاص الذين نعرفهم جميع الحركات النفسية
والبواعث الفكرية فلا ننفعل بتأثيرهم ولا نفيدهم التفاتا ؛ ولا شيء يحلّ

البهجة والرونق من محيّا الحياة كزعم أولئك الماديين الذين يشرحون المعاني ويحللونها تحليلاً علميًا لينفعوا عجائب النفوس وأسرار الأفئدة . إنّ يا كلّ كائنٍ غموضًا يستحيل ادراكه ويتعذّر تعريفه : أهو الإلهام ، أو قدر ، أو خلق ؟ لا الوجد يعني معنى ذلك الغموض الرائع فيه ولا الباحثون إلى تفسيره مقنع مرضيّ . وهكذا كلّ ما حملني بالأمس على القنوط صار اليوم ينبوع أمل . وما زلت بقلبي أعلّله حتى تبدّدت الغيوم من جوّ مستقبلي السعيد

فرجتُ إلى الهواء الطلق واذا برسولٍ يحمل من الكونتس كتابًا . عرفت خطّ يدها الجميل الزين فرجفت في تلك اللحظة أعزّ ما يرجوه العاشق . وبالسرعان ما خابت آمالي ! ما شأنها في الرسالة ان لا أزورها بعد الظهر لأنها تنتظر ضيوفًا من المدينة ؟ ولم تخطّ كلمة مودّة أو كلمة تطمين ، وانما أضافت حاشية معناها ان الطبيب يأتي غدًا فالتقاء إلى بعد غدٍ

يومان يمزّقان من كتاب حياتي ! وياليتهما لم يكونا فلا احتملها فوق أسى كسفٍ سجين مظلم . عليّ ان أصبر عليها وليست بخيرٍ أفي التصدّق بحق على ملك عوجل بالخلع عن عرشه ، أو في التبرّع بها لمتسوّلٍ يدور حول

أبواب المعابد . أطرقت وطال اطراقي ؛ فذكرت صلاة الصباح لأن اليأس أخو ما يكون الى الايمان ؛ وكما لفارس يرى الهوة امامه فيحكم شد اللجام قلت « فليكن ما لا مناص منه ! ولأقبلنه طائعاً دون تذمر فالله لم يخلقنا للغم والمرائي »

ولماذا لا أتعزى بهذه السطور التي خطتها يدها ؟ ولماذا لا أتفذى بأمل الاجتماع القريب ؟ سل من عالج السباحة يشره بوجوب وضع رأسه فوق الأمواج ، والا فاغطس ولا تدع من فمك وعينيك للماء سبيلا . ان لم ترضها كحياة واجب فلتقبلها وغالبها كقدر . كلنا هنا أطفال ؛ ولكن ما أغباه لطفلا يستسلم للغضب أو يركن الى العبوس كلما شد بأم أو حبط له مسعى ! وما أحبه لطفلا ان بكى طلت شمس السرور مشرقة في عينيه كزهرة ناضرة وراء غيث نيسان ، فلا يطول حتى تنفتح أوراقها وينفتح لهبك لأن حرارة الشمس تمتص عن قطرات المطر

وعادت الي خاطرة فبدأت أنفذها : ذاك اني طالما تمنيت لو أن كلمة تسعدك أو تبلغك ما اشتهيت عليه من جميل الآراء . وها قد جاء الوقت الملائم . فرحت اليوم سنحفظ آثار اللقاء بحيا آثارها .

وكنت قريباً منكِ جداً كأني ~~[illegible]~~ بيدها

وما أغلى تلك الصفحات لديّ! كم من مرةٍ قرأتُكِ وأعدتُ قراءتكِ! هذه سطورٌ سعادتي الغابرة؛ يطلّ من بين سطورها عليّ وجهٌ معروف وينظر إليّ حائراً وسكوتٌ أفصح من الفصاحة. يتلو عليّ ذكريات الأسى والهناء فيرجعني إلى الماضي وانظرُ على بحبوحة حوادثه كالام على فرعٍ ولدها الميت منذ أعوام ولا رجاء لا بضمّه إلى صدرها مرةً أخرى — هذه العاطفة تسميها حزناً، ولكنّ في الحزن غبطةً يعرفها الذين أحبّوا كثيراً وتألّموا كثيراً

سُئل الوالدة عمّا تشعر به عندما تتأمل على وجه ابنتها العروس نقاباً البتة يوم زواجها، مقدّرة في زوجها الذي أخذته المنية فجأةً منها. سُئلت عما يشعر ازاء وردةٍ ذابلة جاءت من حبيبها المتوفى وكان أهداها اليها قبل أن يفرق بينهما العالم. كلاهما يبكي وليست دموعهما دموع فرحٍ ولا دموع ترحٍ، بل هي دموع ضحيةٍ قدّمت الأمل لله نجوراً بعد فناء الآمال، وقنعت بالايمان والثقة بحكمته غير المتناهية

ولنعد إلى التذكارات التي تجعل الماضي حاضراً: انقضى اليومان وجوانحي تختلج حبوراً كلّما ولّت ساعة فآذنت بقرب اللقاء. وقد كنت

المركبات في اليوم الأول وجاء النوتيون من المدينة فامتلأ القصر بالضيوف والزائرين وخفقت فوق قبته الأعلام الأولية وصدحت الموسيقى في ساحاته. وعندما أرخى الظلام سدوله ازدحمت الزوارق والقوارب في البحيرة وتردّدت على صفحة الماء أصداء الأناشيد والأغاني. فأطلت الاصداء لعلي أرى الأخوين مختفية من نافذتي. وظلت الحركة والجلبة في القصر إلى ما بعد ظهر اليوم التالي حيث عاد الضيوف أدراجهم وآخر مركبة عادت في المساء إلى المدينة كانت مركبة الطبيب.

عندئذٍ ضاق صدري وفكرت «هاجر وحدها؟ أشعر أنها تفكر فيّ وتتمنى وجودي معها. أأترك ليلة أخرى تمرّ دون أن ألمس يدها فوجاً بالملاك الذي اتى الى الحياة في الليلة الجديد؟ أرى في نافذتها نوراً. فهل أدعها هناك بلا رفيق؟ ألا يصح ان اتمتع ولو هنيهة بحضورها العذب؟» وجدتني فجأة أقوم بالي وقد ارتفعت يدي لدق الجرس. فتوقفت قائلاً: «الآن لا يستحق الضعف والتذلل! إن أنا دخلت عليها الآن وقفت أمامها مجللاً كرقيب يتوارى بالظلام. فكيف اليها صباح غدٍ؟ كيف أعود اليها كبطل استحق ان تضع بين يديه اكليل الحب؟» جاء الصباح وذهبت اليها. أواه! لا تقولوا، أيها الروحيون، ان الروح تحيا بلا جسد! الحياة الحقيقية والسعادة التامة لا يجتمعان إلا حيث

يتوحد الروح والجسد فيصيران روحًا جسديةً وجسدًا روحيًا . الروح بلا جسد شبح ، والجسد بلا روح جثة . وهل تخلو زهرة الحقل من الروح ؟ أليس الذي تبرز بقدرة القدر الباري الذي ينيلها الحياة والجمال ؟ ذلك القدر هو روحها ولكنه أبكم فيها بينما هو ناطق في الانسان . الحياة الحقيقية حياة الروح والجسد معًا ، والاجتماع الحقيقي اجتماع الارواح والاجساد جميعًا . أما العالم الذي عشت فيه سعيدًا يومين كاملين فقد اضمحل الآن كالخيال ، أو كتنهيدة العدم ، لأني الآن (الآن) حقيقة أراها بالروح والجسد

تمنيت ان أضع يدي على جبهتها وألمس أجفانها لأتثبت من وجودها بالذات وليس بالصورة الحائمة حول روحي ليلة أمس ، بل كشخص غير شخصي يحبني ويثق بي ! شخص ألتف به شقيقي بنفسي ؛ بعيد عني إنما أقرب الي من نفسي وبدونه لست حياتي بالحياة ، ولا موتي بالموت ، وما أنا سوى ضباب لذات ضائع في الفضاء غير المتناهي

استغرقت عيناي طويلاً أزهاري وأفكاري فلمحت تتكامل الحياة في الله ولم يعد يرهبني الموت لانه لا يقوى على افناء هذا الحب العظيم إنما هو يكسبه

متانة وثباتاً

ما اعذب السكوت قربي وقد تجلت نفسي في وضع أعضائي وتجمع هيئتي وتتابعت
السرائر في عينيك! بقيت صامتاً وشيء في يرضي كأني سمعتك تهمس في قلبك "أنك تؤلمني".
ثم بعد هنيهة "هل اجتمعنا مرة أخرى؟ كن هادئاً ولا تيأس؛ لا تسل ولا تستفهم؛ اني
أحب بك فلا تسخط عليّ". كل هذا قرأته في عينيك ولكنك لم تتلفظ بكلمة. وفتحت
شفتيك أخيراً وقلت وصوتك يتهدج "ألم يصلك كتاب من الطبيب؟"

أجبت "كلا"

فقلت "الأفضل إذن ان تسمع الخبر مني. اعلم يا صديقي اننا نلتقي اليوم للمرة الأخيرة.
فلنفترق بلا تذمر. لقد أتيت إليك عن جهل إذ كيف أعلم ان للنسيم العليل من
القوة ما يسقط [illegible] عن الزهرة؟ كنت قليلة الخبرة فلم اتوقع ان توحي اليك
فتاة بائسة نظري سوى عواطف الرحمة والاشفاق. ولقد انزلتك على الرحب والسعة لأنك
صديق منذ أعوام طويلة، وثقت بصفاتك — لماذا اخفي الحقيقة؟ — لأني كنت أحبك. إنما
المجتمع لا يفهم هذا الحب ولا يسمح به. لقد فتح الطبيب عينيّ وأخبرني ان حكايتنا تثقه
[illegible] بنا صيلاً [illegible] أذنيّ المدينة؛ وكتب إليّ أني الأمير يسعى
ان أقطع كل علاقة بيني وبينك. ان أخي لأمك شديد. ولكن قل لي انك
تصفح عني، ولنفترق صديقين كما التقينا"

قالت هذا وأسبلت اجفانها لتخفي عني دموعها فأجبت " لي يا ماري حياة واحدة وهي قربك ، وارادة واحدة وهي ارادتك . أحبك بحرارة الحب وقوته ولكني لست أهلاً لك . أنت أرفع مني مقاماً وشرفاً وطهراً فكيف أرجو ان أدعوك يوماً زوجتي ؟ وليس ثمت من وسيلة أقوى لتيسير مقامنا في سبيل الحياة . ماري أنت حرة وانا لا أريد ان تضحي لأجلي شيئاً ما . العالم واسع واذا أردت الفراق فلن نجتمع . ولكن ان شئت بحبك لي وبأنك خاصتي فاعرضي عن المجتمع واتركي احكامه البلهاء ، ودعيني احملك على ذراعي الى الساحل فأجتو هناك واقسم ان اكون لك في الحياة والموت "

فأجابت متهللة " تمنى المستحيل دوم يا صديقي . لو شاء الله ان يجمع بيننا لما بعث اباك بهذه الأدواء التي تجعلني طفلة عاجزة باكية . لا تنكر ان ما ندعوه قضاءً وقدراً ، أو ظروفاً ، أو فروقاً اجتماعية انما هو في الحقيقة ارادة الله ، ومن طمع في التغلب عليها فقد عصى الله وكان غراً وغبياً ان لم يكن شقياً آثماً . إنما الناس على الأرض كالكواكب في عرض الفضاء يسلكون سبيلاً خطها يد الله فان تواجه فيها اثنان فذاك الى حين ثم يفترقان مسيرتين . وباطلاً يحتجان ويقاومان فنظام الكون باقٍ على ما هو الى الأبد . أنا لا ارى موضع الخطأ في حبي لك . غير ان الآخرين يرونه فاحبني يا صديقي . ولنمتثل بتواضع وايمان "

كان صوتي هادئاً يئن فيه الألم العميق ؛ ولم أدرِ ان استطيع الابتعاد منه الخطوة الأولى ، فضبطت انفعالي ما امكن لئلاّ اتهدد مجازفاً بكلمة تزيد في الأمر وقلت ، تقولين ان هذه مقابلتنا الأخيرة فدعيني أعلم من فضلكِ ذواتنا . لو خالف حبنا نظاماً علوياً لامتثلت معكِ بتواضع وايمان . ولكن الحب هو ارادة الروح السرمدية وتسخير تلك الارادة هو هو انكار ارادة الله . ~~[illegible]~~ طالما حاول الانسان مخادعة الله كأن دهاءه كفيل بتضليل الحكمة الربانية . وهذا بعض جنون نصيب من اقتحمه نصيب قزم يبارز جباراً فليس أمامه من عاقبة سوى ان يُسحق ويتلاشى . لا شيء يقدم في وجه حبنا غير التقوّل والافتراء ؛ فما هو التقوّل والافتراء ؟ أنا اهدم أنظمة المجتمع ، احتقر حتى في تشعبه وارتباكه الحالي لأن الجسم العليل لا يُشفى بفيد العلاج المركب . وبدون الفروق الاجتماعية والاصطلاحات والعادات التي كثيراً ما نضحك منها يستحيل ترابط البشر فيما بينهم والتعاون لبلوغ غاية ، وجدنا على الأرض لنشتهي اليها . فيتحتم إذاً تضحية الشيء الكثير لتلك الآلهة الكاذبة ؛ وكأهل اسبرطة الذين كانوا يرسلون كل عام شفينة مشحونة بالشبان والفتيات يقدمونهم قرباناً على ان نحر الضحايا على هيكل الحيوان المسيطر على تركيب نظامنا الاجتماعي ولكن يؤسفني انه ليس من قلب حساس رقيق إلاّ تعذب وتنظر ، ولا من رجل ذي إدراك وشعور إلاّ وأرغم على إطباق

جناحي حبه ليسبحه في القضى الاتفاق الرضيق . وذلك حادث ابدًا قديم جديد .
أنت لا تعرفين المجتمع . ولكني لو قصرت الكلام على اصحابي لأسمعتك من العجائب
ما يملأ أسفارًا . أحب احدهم فتاة فاحبته هي الاخرى ؛ ولكنه كان فقيرًا وكانت
هي غنية ، فتخاصم الأهل والمعارف وتقاذفوا السباب والشتائم وكانت النتيجة
انسحاق القلبين . لماذا ؟ لأن المجتمع يرى انه من منتهى الحطة والذل ان
ترتدي السيدة ثوبًا مصنوعًا من صوف النبات الامريكي وليس من نسيج الدودة الصينية
« أحب آخر فتاة فاحبته أيضًا . ولكنه كان بروتستانيًا وكانت هي كاثوليكية .
فقامت قيامة الكهنة والامراء وانسحق القلبان . لماذا ؟ لأنه حصلت مناوشات
سياسية بين فرنسيس الخامس وفرنسيس الاول وهذي الثانية منذ ثلاثة قرون
« وأحب غيره فتاة فاحبته هي أيضًا . ولكنه كان شريفًا ولم تكن هي ذات
حسب ، فتطلب كبرياء اخوته وألهبت الغيرة اخوتها وانسحق القلبان . لماذا ؟
لأن جنديًا قتل آخر كان يتهدد حياة الملك وعرشه منذ عشرات أو مئات الأعوام فأغدق
عليه مولاه الألقاب والرتب ؛ وها ان حفيده اليوم يكفر عن ذلك الدم المسفوك
بخلق نخوة الفساد وصحبة ترعى في الطلل
« يقول علماء الاحصاء ان عدد القلوب المنفطرة يداني عدد الثكالى .

وأنا أميل إلى التصديق؛ لماذا؟ لأن المجتمع يريد كل حب بين غريبين ان لم يرتبطا برباط الزواج. فان أحبت فتاتان رجلاً فحسب إحداهما، وان أحب رجلان امرأة تحتم ان يضحي أحدهما أو ان يضحيا معاً. لماذا؟ لماذا يحظر على رجل حب فتاة ليس له ان يقترن بها. أكل الحب في ان يهرب الرجل بالمرأة كأني بغنيمة حربية. أراك تقبضين عينيك فأدرك اني أطلت الكلام. لقد دنس المجتمع أقدس معاني الحياة، فاستمعي يا ماري. فلنستعمل لغة العالم عندما نكون فيه متكلمين بمثلين فاعلين. ولكن فلنحفظ بعيداً عنه سراً طاهراً يختلي فيه قلبان صادقان ليتكلما بلغة الحب والاخلاص دون ان يتأثرا بغضبه أو يكترثا لعداوته. والمجتمع يكبر هذه المقاومة العنيفة من قلب أدرك مقوته وعرف عظمته فآثرها على الاحكام البلهاء. لا بأس بالاصطلاحات والعادات في حال اعتدال لأنه حسن ان تعرش اللبلاب بالوف الاغصان والحبال على الجدار القوي. ولكن حذار من الاذاعة لئلا يجد البيت الطفيلي منفذاً إلى داخل البنيان فيفسد إحكام اجزائه ويهدم أركانه. ان حبنا لا يضر شيئاً ولا يؤذي أحداً بل يسعد نفسينا ويرفعنا إلى عرش مبدعنا. فاتبعي مشورة قلبك واصغي إلى صدى ضميرك ثم اجيبي. ماري على كوني لي! اعلمي ان الكلمة المرتقبة الآن على شفتيك تقضي علي وعليك اما بحكم لي ولك بالسعادة أو بالشقاء"

صمتُ وضغطتُ على يدها فانضغطت على يدي بأنامل ملتهبة وقد بدا التأثر يهيمن وحكاها . والسماء الزرقاء المنشورة فوق رأسي لم أرها حياتي على جمال ظهرت فيه الآن وقد هدّدها الزوبعة بالهجوم وانفتحت إلا الغيوم واحدة بعد اخرى

ثم قالت كمن تيقظ "أجيل النور الذاتي" ولماذا تحبني ؟"

أجبتُ "بل سلي الطفل لماذا ولد ، والوردة لماذا أزهرت ، وسلي الشمس لماذا بزغت فأنارت الكون . لماذا احبك يا بنية ؟ لأنه يجب ان احبك . وان شئتِ اسراراً فهي الكتاب الذي تجبين تعلّم لأجلي : —

" أفضل الناس يجب ان يكون أعزّ الناس الينا دون ان نعبأ بما يلحقنا بسببه من ربح وخسارة ، أو منفعة واهمال ، أو شرف وذل ، أو ثناء ومذمة ، أو أي أمر من الامور . احسن الاشياء واشرفها يجب ان يكون أعزها الينا لأن الحسن والشرف . وعلى هذا المبدأ ينظم المرء حياته الداخلية والخارجية لأن بين الاشخاص تفاوتاً فيكون هذا خيراً من ذاك وفقاً لمقدار ما يظهر فيه من الخير الاسمى الذي يتجلى في اذا كان منه في غيرها . والفرد الذي يكثر فيه تجلي الخير الاسمى هو الاحسن ، والذي يقل فيه ذلك التجلي هو الأقل حسناً . فعلينا ان ننتبه لهذا الاختلاف بين الناس حتى اذا اهتدينا الى خيرهم

أحببناه وأعززناه والتصقنا به طلبًا للاتحاد الدائم »

« وأنتِ، ياماري، خير من عرفت لذلك أحبك وأنت عزيزة علي.

وكلانا يحب الآخر. فقولي الكلمة الواحدة التي تكبر وتحيا فيك - قولي أنك لي! لا تخوني قلبك ولا تخدعي عواطفك. أعطاك الله حياة معذبة ثم أرسلني اليك لأخفف عنك؛ فألمك ألمي، وسنحمل هذه الآلام معًا بشجاعة كما تخترق السفينة العظيمة عواصف الحياة وأعاصيرها تحمل الأثقال الباهظة وتوصلها إلى الشاطئ الأمين. تكلمي يابنية وضعي رأسك على كتفي »

فهدأ روعها وخضب الاحمرار وجنتيها كما تخضب حمرة الشفق رؤوس الجبال؛ ثم فتحت عينيها الباقتين كشموس مئية وقالت: « انا لك. انا خاصتك لأن تلك مشيئة الله. اقبلني كما أنا: فأطلب لك ماهيتي وليجمعنا الله في حياة أبهج من هذه وليجازك عني خيرًا! »

ودقت قلبي قرب قلبها ليختما سوية، وأوقفت شفتاي الكلام على الشفتين اللتين نطقتا بدوام سعادتي، وأوقف الزمان دورته ليلاحظ العالم حولنا ولم يمكث فيه غيرنا مدة خلسة دهرًا - وهو غرام وهناء. ثم زفرت زفرة عميقة هامسة: « اغفري لي كل هذه السعادة! والآن

اذهب ودعني وحدي لعلنا نلتقي مرة اخرى يا مديتي وحبوبي ومسعودي غبطتي !"

. . . . . .

هذه آخر كلمات سمعتها مني . عدت الى غرفتي ونمت نوماً طويلاً مثقلاً بالأحلام المزعجة . وبعد انتصاف الليل دخل الطبيب غرفتي وقال : "لقد انتقلت ملكتنا الطاهرة الى حضن خالقها . وهذه وديعة منها اليك" .

فرفضت الكتاب فوجدت فيه ذلك الخاتم المنقوش عليه "كل شيء لله" وكانت اعطتنيه في طفولتي ثم رددته اليها ؛ وكان ملفوفاً بورقة كتبت عليها الكلمات التي فهمت بعد "كل ما لك لحبوبي — خاصتك ، ماري"

جلست وجلس الطبيب وغرقنا في بحار عقلي يعرفه كل من ابتلي بهم لا رجاء بعده . اخيراً نهض الشيخ ومسك بيدي قائلاً — "نحن نلتقي اليوم للمرة الأخيرة : أما انت فعليك ان تغادر المكان" . وأما أنا فأيامي معدودة . غير اني اود ان ابوح لك بسر حملته دفيناً في صدري طول الحياة ولم أطلع عليه أحداً ، وآلان بي حاجة ماسة الى إفشائه ؛ فاصغ إليّ . ان الروح التي فارقتنا روح شريفة طاهرة والقلب الذي غادرنا قلب صادق عميق . عرفت قلباً آخر كهذا وروحاً كهذه الروح — بل ابهى منها ، هي روح والدتك . عرفت والدة هذه الفتاة قبل زواجها

فأحببتك وأحببتني. كنا فقيرين فأنت أحد والد لأنتما من نحابه العدز والفاقة ولأمل إلى مكانة اجتماعية تليق بي وبك. وقبل ان ادرك غايتي اجتمع بك الأمير الشاب وأحبك. ولما رأيت امير بلادي مولعًا بك يبذل ما في وسعه ليعلي شأنك ويرفعك في البيئة البائسة، إلى مرتبة الامارة — شعرت بوجوب تضحية سعادتي لأجلك لأن حبي لك كان أقوى من حبي لنفسي. فغادرت البلدة وزرت لك خطابًا فيه حللتك من قيود وعودها. ولم أرها بعد ذلك إلا وهي على وشك الموت عقب ولادة ابنتك هذه. يمكنك بعد هذا الاقرار ان تدرك مقدار حبي لحبيبتك وانني كنت احاول إطالة عمرها يومًا فيومًا لأنها كانت الشخص الوحيد الذي يربطك قلبي بالأرض

"والآن إسر في طريقك يا بني واصل الحياة كما اشتهيت، ولا تأسف يومًا واحدًا في القم العقيم. عد المحتاجين من اخوانك البشر، واحببهم جميعًا، واشكر الله الذي انعم عليك في هذه الحياة الجواد بقلب لقلبك، وحب لحبك، وروح لروحك — وان فقدتك!"

فقلت ممتلئًا بكآبة الله". وافترقنا افتراقًا لم يكن بعده من لقاء

. . . . . .

لقد مرت الايام والاسابيع والشهور والاعوام سابحة في بحر الابد
وانني صار لي أرضاً غريبة وبلاد الغرباء أصبحت وطني . لكن حبّ فتاتي لا يزال
حيّاً فيّ . وكما تسقط دمعة القلب على مياه البحار كذلك غرق حبي لا في بحر حبي للأبد
بأسرها - حبي الذي يشمل ملايين من اولئك الغرباء الذين لا يعرفونني
وقد شغفت بهم منذ حداثتي

- - - - - - - - - - - -

انما في أيام الصيف الساكنة الحارة كهذا اليوم ، عندما
بالغابة الخضراء في حضن امي الطبيعة ، وتنوه بي افكاري فلا أعود أدري ما إ
كان في العالم أناس غيري ام أنا وجدت وحدي على الأرض ، اذ ذاك تحدث ذكر
في مقبرة حافظتي وتنهض الذكريات من مدافنها وترجع قوة الحب
القديم قابضة على فؤادي لبرهة ، فأنادي تلك الفتاة الجميلة ، فتأتي إليّ
مرة اخرى بعينيها العميقتين اللتين لا قرار لهما . عندئذ يتجمع حبي
ويغرق في حبي لشخصها - لشخص ملكي الحارس . فتخرس افكاري وتجثو
أمام سر الأسرار الغامض ، سر الحب المتناهي وغير المتناهي

(تتمة)

تم طبع هذا الكتاب سنة ١٩٧٣
على مطابع ا. بدران وشركاه - بيروت - لبنان

مؤسسة أ. بدران وشركاه
للطباعة والنشر
بناية العسيلي – شارع السور
ص.ب ٢٦٧٦ – تلفون ٢٢٩٥٢٠
بيروت – لبنان

٥٠٠ ق. ل.

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 071970717
(NEC)
PT2436
.M45
Z537
1973